

و. ل. محمد رضا التوفيق

روايات مصرية للجيب

38

الأخير

سافاري

Looloo

www.dvd4arab.com



مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصري شاب يجاهد - كما يقول الغلاف - كي يبقى حياً ويبقى طبيباً ..

وحدة (سافاري) هي البطل الحقيقي لهذه القصص ، و (سافاري) مصطلح غربي معناه (صيد الوحوش في ادغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سافرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتحويل الكلمة إلى (سافراي) .. لا أعرف في الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التي يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب في معرفة النطق الغربي لللفظة (سافاري) فلتتخيل أنها (صفري) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافاري) التي نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض في القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهي وأهال متشككين وبيلة لا ترحم ..

للوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير
 شاب مصرى عادى جداً ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد فى
 وطنه فأتطلى يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. أتطلى
 يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطيبة
 الكندية الرقيقة (برنات جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك
 للفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ،
 والطعام المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنا من الصير أن تجمع بين شينين : أن تظل حياً
 وتظل طبيياً .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص ..
 وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف
 والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن
 يصب هذا الخليط فى كنوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا
 المجنون بعد إلا فى مرأتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شيء ..

يوم نموت سيمحو النسيم ترقيق آثار لقدامنا على الرمال ..
 بعدما يفتى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا ها هنا
 مرة في فجر الزمان ؟

أغنية حقيقية لقبائل البوشمن

1 - قرار إزالة

الليل لا يريد أن يتحرك ..

ضيف ثقيل سمح بتصوير أنه هدية الأقدار لك ، وأنت لا تحلم
إلا باللحظة التي ينظر فيها لساعته ويطن (حان الوقت كسى
لنصرف) .. لكنه لا يفعل .. لأنه وقع . لأنه خال من اللياقة .. لأنه
يتصور أنك مستمتع بهذا كله ..

وأنا أرمي الروسى مفكرًا ..

قصته سخيفة .. إنها السخف مجسدًا .. لكنها تظل مع هذا
أقرب الفروض للتصديق .. هناك فى علم المنطق ما يدعى
Ockham's razor (موسى أوكام) أو (قاتون الشُخ) .. عندما
يوجد أكثر من تفسير لظاهرة ما ، فإن أبسطها هو الصحيح ..
الفتاة التى تزوجت وانقطع عنها الطمث وبدأت بطنها تتضخم ،
ليست مصابة بسرطان المبيض .. على الأرجح هى حامل !

هكذا يقدم لى الروسى تفسيرًا بسيطًا يمسك بكل شيء فى ذات
اللحظة ، لكنى ببساطة لا أصدق ..

« أمس عندما اختفى أخو هذا الرجل .. خرجنا من الكوخ
وكان هناك عدد من النساء والأطفال .. عندما كنت أوقفك
اصطدمت بالموضع الذى كانت فيه (مارثا) نائمة .. كان خالتي
أو هذا ما حسبته فى الظلام »

« هل تجد أى تفسير منطقي لاختفائها من الطائرة ؟ الأمر
لا يحتاج إلى نكاه .. طائرة مغمورة بالرمال لا يوجد فيها إلا باب
واحد .. فتحناه أنا وأنت .. برغم هذا لم نجد ما فى الطائرة
وعطينا أن نصلى لها اختفت فى الثوبى التى فلقنا فيها الوعى ..
اختفت وأعادت الرمال لتغطى الطائرة »

« ليتنى أعرف .. كل ما أدركه هو أننا والقعون فى قبضة
ساحرة شريرة تعبث بالعقارب وتقتل البوشمن .. ساحرة جاءت
من نفس عالم (سكوتى سميث) .. باختصار : أعتقد أن (مارثا)
هى ذاتها (سكوتى سميث) ! »

لكن إن كانت كلماته فشلت فى كسب مصداقية عندي ، فقد
نجحت بشدة فى أن تطرد النوم من عيني .. أين (مارثا) ؟ إنها
نائمة مع النساء ، بينما يقف محارب البوشمن الذى أطلقت عليه
(مطارد النحل) خارج الكوخ ، وقد ثنى ساقه ليلصق كف قدمه
اليمنى فى ساقه اليسرى .. يبدو أنها وقفة مريحة جداً .. إنهم
قادرون على الوقوف عدة ساعات بهذا الشكل ..

لا أعتقد أنه قدر عن الدفاع عنا على كل حال .. ليس من عادة المحاربين مثل (الماساي) و (الزولو) ، إن البوشمن معالمون وقتهم موزع بين الصيد والحصاد والجنى .. الرجل الذى يطارد النحل ليس بالتأكد أصلح من يحمينا من (سكوتى سميث) ..

عنى على الخيمة .. لو كان كلام الروسى صحيحاً لرأيتهما تخرج .. ولو كان أكثر صحة لما رأيتهما أصلاً .. سوف تباغتني من الخلف لتقطع حلقى ..

هكذا مضت الليلة بين الكوابيس والسنة والإفالة الكاملة المذعورة .. لا أعرف كيف يترجمون تعبير hypnagogic state لكنه يعبر بالضبط عن تلك الحالة الغريبة بين النوم واليقظة .. قلى ؟ لا أعتقد أن هناك قلى ..

يبدو أن الأخ (سكوتى سميث) قرر أن يستريح ويريح ولو ليلة واحدة ..

وعندما شعرت بأشعة الشمس تحرق أجلي ، وعندما سمعت الحركة والكلام من حولى ، وعندما راح نهب الصحراء السمج يحاول التهام فمى .. عندها نهضت فى خجل شاعراً بأننى عار تماماً .. عندما تكون نائماً وسط حشد من القوم المستيقظين تشعر بأنك مكشوف تماماً ..

نهضت متسائلاً عن برنامج اليوم ..

كنت منى امرأة ذلك (البوشمن) فتناولتني ورقة شجر عليها
معجون كزبرة .. هؤلاء القوم تعيشوا نعلماً ولما لم ألق إلا الفاكهة ..
الآن أنا مشمئز .. كأنه كتب على ألا أكل لأسباب دينية أو بسبب
الاشمئزاز ..

هكذا وضعت الورقة جانباً وبحثت عن بعض الفاكهة الغامضة
وابتلعت ثلاث أو أربع حبات ..

كانت الفتاتان (مارثا) و(سيمونيّا) الآن معاً وقد بدا عليهما
الانتعاش كمصبيتين .. لقد نامتا جيداً كما هو واضح ، بينما أنا
و(فلسيلي) تصلح صورتنا للتطبيق على جدار قسم (الواليلي) ..
ابحث مع الشرطة ..

قالت (سيمونيّا) :

« ما هو برنامج اليوم ؟ »

قلت متعكر المزاج :

« لا برنامج .. هؤلاء القوم تخنوا مسكنهم هنا .. لن يتحركوا ..

لو شئنا أن نرحل فهذه مشكلتنا نحن .. »

ونظرت إلى (مارثا) في شك .. لا أصدق حرفاً من هولجسي ،

لكني برغم هذا لا أحب أن أدير ظهري لهذه الفتاة أبداً ..

تحتاج إلى وقت طويل إلى أن تتعلم كيف تتقى بفتاة خرجت
سالمة من حطام طائرة ، دون أن تفتح أى باب ، وتعبير الصحراء ،
وتحب العقارب ..

جلسنا على الرمال ننظر إلى الطبيعة من حولنا ..

قالت وهي ترفع يدها لتتقى الشمس الحارقة :

- « لا أعرف أين نحن بالضبط .. لكننا على الأرجح فى بتسواتا
أو قرييون من ذلك .. »

قلت لها وأنا أجمش الرمال فى قبضتى :

- « يا سلام ! نجتاز حدود دولة ذات سيادة إلى دولة ذات سيادة
بهذه البساطة ؟ »

لكنى كنت ذا خبرة فى أفريقيا .. أفكر جيداً كيف انتقلت فى عملية
تسلى (كليمنجارو) من (كينيا) إلى (تنزانيا) تدريجياً .. إنها تلك
النقط على الخريطة حيث يصعب رسم الحدود ، وحيث لا تلقى القبلل
بالأى حقيقة أنها فى (كينيا) أو (تنزانيا) .. أردت أن أقول أننا
فى الحقيقة إذ توغلنا فى الصحراء إنما كنا كذلك نعبّر الحدود إلى
(بتسواتا) .. هنا نحن أولاء لتحرك فى كالاهارى التى تستحيل

مراقبتها بدقة .. وبهذا نعبّر من سيادة دولة إلى دولة أخرى ..
الطبيعة كانت وستظل أقوى من الحدود الجغرافية .. بل هي تسخر
منها .. ليت حرس الحدود يقبضون علينا .. لكن أين هم ؟

قلت (مارثا) وقد ارتسمت الجدية على ملامحها :

- « هؤلاء البوشمن يعرفون أنهم يجب ألا يقتربوا أكثر ..
إنهم هاربون من الحجر ا »

حجر ؟ عم تتكلمين ؟

قلت فى جدية :

- « إن حكومة بتسوتسا تحاول أن تحصرهم فى محميات ضيقة
يقيمون فيها .. محميات فى قلب (كالاهارى) .. فى الواقع ليس هذا
للحفاظ عليهم بل لإبانتهم .. نحن فى زمن لا يرحب بهؤلاء القوم
ولا يريدهم .. لا مكان للبوشمن فى عالم اليوم ، لهذا تصر حكومة
بتسوتسا على تقييد حريتهم فى المحميات ، وفى الوقت ذاته تحرمهم
من أية وسيلة محترمة للعيش .. لا صيد ولا زراعة .. معنى
هذا أنها تعدمهم ببطء .. هناك بوشمن كثيرون فروا من هذه
المصكرات وتركوا أنفسهم لرحمة الصحراء .. الصحراء التى لم
تفس عليهم قط كما قسا الإنسان .. »

ثم أشارت إلى الأسرة التي نحن في ضيافتها ، وقالت :

- « هؤلاء فلرون .. لكنهم لو اقربوا لكثير لقيضت عليهم الحكومة .
البتسواتية وألقتهم في المحميات .. على كل حال هي سياسة
ناجحة لأن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف .. »
قلت لها في ذعر :

- « إذن (سكوتى سميت) لم يكن يفعل إلا ما تقتضيه الحضارة .. »
قلت بالحسنة في مرارة :

- « كان صيد البوشمن نشاطاً رياضياً مسموحاً به .. وفي عام
1870 اقترض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد ..
آخر رخصة تسمح بصيد البوشمن أصدرتها ناميبيا عام 1936 ..
بعد هذا صار تجويعهم أقرب إلى التحضر .. »
شعرت بقشعريرة ..

شد ما تبلغ قسوة الإنسان بأخيه الإنسان .. أى أن صيد البشر
كان نشاطاً قانونياً حتى الثلث الأول من القرن العشرين ..
بداليون .. نعم .. متخلفون .. نعم .. لكن لهم الحق في الحياة
مثل أى واحد آخر .. إتهم تراث حضارى ثرى من الخسارة أن

يضيع .. لقد خلقهم الله ومن حقه وحده أن يزيلهم من على
وجه الأرض ، وإلا وجدت من يرغب في إزالتها أنا نفسي يوماً
ما .. الحقيقة أن العرب سيجدون بسهولة من يرغب في إزالتها
فعلًا ..

إنها حياة قاسية يا زميلي .. حقاً هي كذلك ...

2- فلنجرب حفظنا ..

كان مطارد للنحل جالماً يتأمل آثار الصيد على الرمال ..

قالت لى (مارثا) وهى ترأب جلسته للمتأمل :

- « اسمه (توى) .. »

قبل أن تلفظ الاسم طرقت بلسانها تلك الطريقة التى تذكره بصوت (توت توت) المستكر .. هكذا عرفت أن الاسم يكتب هكذا : (/Twi) .. لست غيباً جداً لو كنت قد لاحظت هذا ..

ثم أردفت :

- « هناك صبي مراهق فى الأسرة اسمه (توى) .. ليس من أبنائه .. حسب قواعدهم الغربية يحق لأم (توى) الصغير أن تعتبر (توى) الكبير ابنها .. و (توى) الكبير يعتبر أخت (توى) الصغير لأخته .. (توى) الصغير يعتبر زوجة (توى) الكبير زوجته .. ابنة (توى) الكبير محرمة على (توى) الصغير لأنها تعتبر ابنته ! »

ارتجفت للفكرة .. معنى هذا أن ابنة أى رجل يدعى (علاء) محرمة على .. ومعناه أن أى رجل يدعى (علاء) له أن يعتبر (برنات) زوجته ! بل إن لى هى أم أى (علاء) فى مصر !

لكن الأمر سهل هنا نسبياً لأن عدد الجماعة صغير جداً ..

كان الرجل يرفلب الأثر في حنكة وهو جالس في وضع القرفصاء لكنه يمشي للأمام .. طريقة مشي صعبة جداً كنا نجبر عليها في المدرسة الثانوية العسكرية على سهيل (التكدير) .. يبدو أن عضلات فخذي هؤلاء القوم من حديد .. التجاعيد تزدهم في وجهه وجبينه .. إن البوشمن يتجدد جلدهم بسرعة غير عادية وهذه صفة تميزهم .. الجلد الزيتوني المجدد .. دعك من علامات التركيز على وجهه كأنه يحل معادلة زرية ما ..

لأنت (مارثا) التي لاحظت اهتمامي بما يدور أمامي :

- « إنه يتلخص روث تيتل اليربقي .. يمكنه أن يخمن سن الحيوان من جفاف وصلابة الروث .. إنه يعرف منذ متى مر الحيوان عن طريق ملاحظة أعشاش النمل الأبيض التي هدمها الحيوان أثناء مشيه .. بعد فترة بعيد للنمل بناء أعشاشه وهذه الفترة يعرفها البوشمن بالخبرة .. يعرف متى يستعيد العشب شكله الأصلي بعد مرور التيتل .. يعرف متى يعاود العنكبوت نسج شبابه .. عندما يصيب رمح البوشمن حيواناً فهو يتوقف أولاً لدراسة الأثر الذي تركه الحيوان ، قبل أن يلحق به .. هذه هي الخبرة التي ألفت البوشمن أحياء حتى اليوم في هذه الطبيعة المعادية .. »

كان (توى) يتعد بطريقته الغريبة ، فالتفتنى (مارثا) ممسكة بيدي إلى حيث جلست النساء يصنعن الأسهم ..

إنهن يمسحن العود فى الرماد ، ثم يلطخن نهايته بالقلل الذى يضعنه فى وعاء فخارى .. ثم يلففن حوله لحاء الشجر ، ويصنعن فى نهايته ثلماً يسمح بمرور وتر القوس .. وفى الطرف الآخر يخرسن قطعة مدهبة من عظام الزراف .. ثم يلطخن قطعة للعظام بالمسم الذى يحفظنه فى قرن وعل .. لاحظت أن النساء يخرسن الخرز فى جباههن ليزين كل تجعده هناك ..

ليس من المعتاد لدى البوشمن أن يملكوا قطعاً من الماشية أو يزرعوا .. إنهم (صيادون/ جامعون) فقط ولا يعرفون شيئاً عن الملكية الفردية ..

قلت لـ (مارثا) :

- « هؤلاء القوم هم أبناء الطبيعة .. إنهم نوع من اليهود والتيتال .. يبدو لى أن مطاربتهم وقتلهم مستحيلة .. فكيف استطاع البيض ذلك ؟ »

- « الطبيعة لا تستطيع أن تواجه طلقات الرصاص .. »

قلتها ببساطة ونهضت لتجلس جوار النسوة لتعاونهن فى صنع الأسهم ..

نظرت إلى حيث كان (مطارد النحل) فوجدته قد توارى عن
عنى تماماً ..

عسى أن يجد التيتل الذى يبحث عنه ..

كان المنظر بديقا لا يمكن تخيله إلا لو رأيته .. هنا يحنى القلم
رأسه فى خجل ويتحى جلتاً للكاميرا أو ريشة الفنان ..

مجموعة من أشجار (شوكة الجمل) .. تحيط بكل حصن من
أغصان الشجر مجموعة من أعشاش الطائر النساج - وهو
طائر جميل يذكر بالبهقاء - وكل عش منها يناهز مترين فى
القطر .. من وإلى هذه الأعشاش تدخل الطيور بلا توقف ..
مشهد يحبس الأنفاس بحق .. إنه من العلامات المميزة لصحراء
(كالاهارى) ..

حينما يجتمع مع هذا المشهد عدد لا بأس به من حبيبي
المشاغب (الميركات) ، تشعر بأنك توشك على الصراخ من
الانبهار ..

(كالاهارى) أقود الملح !

الصحراء التى ضعنا فيها ، وهما نحن أولاء على حافة للنجاة ،
لكننا بعيدون عنها برغم ذلك ..

وقفنا نرمل المشهد ذاهلين ، ولا شعورياً امتدت أنامل (فلسيلي) تعصر أنامل (سيمونيّا) ... هذه من اللحظات التي تكون فيها الروحان على تردد واحد من ثم يحدث الرنين .. لا أذكر متى تلقينا في المدرسة موضوع (رنانات هلمهتولتز) ، لكن التجربة تبرهن عن نفسها بشدة هنا .. إن صوت أنفاس الخطيبين المتلاحقة أعلى من مجموع صوت أنفاسهما معاً ..

نظرت لـ (مارشا) ونظرت لى .. نحن مثل عجلز الفرح ، نراقب هذا المشهد لكننا لسنا جزءاً فيه .. هي لا تهتم بى على ما اعتقد ، وأنا متزوج وأخشاها كالجحيم ..

لماذا أخشاها ؟ لا أعرف .. لقد تحول عنقها للطويل النحيل إلى علامة استفهام عملاقة ..

إنها مفيدة .. لا أنكر هذا .. تعرف كل شيء .. لكنى بحاجة إلى تفسير واضح لكل ما مر بها منذ سقطت الطائرة ...

قلت لأقطع اتسجام المتحابين :

« ما هي خططنا يا شباب ؟ »

التفت لى (فلسيلي) وقد عاد إلى وعيه ، وقال :

« لا توجد خطط ... لو كنت تفضل أن نواصل الرحيل إلى الشمال بحثاً عن قوة حدود من (بتسوقا) تكبض علينا ، فلنا نست

متحمسين لهذا .. على الأقل مع (البوشمن) نحن لن نضيع ..
هناك ماء وطعام وماوى وضمان ضد الوحوش .. »

قلت فى غيظ :

- « هل ترى أن نظل هنا حتى تقوم الساعة ؟ سيكون منظرنا
جميلاً وأنت تتقّب عن الماء تحت الأرض بأنيوب .. »

نظرنا جميعاً إلى ما وراءنا .. حيث يقف كوخ البوشمن وراء
الأشجار ، والنسوة يصنعن السهام ، بينما الأطفال للعرافة يلعبون
ببيض النعام...

حقاً لن نحب حياة البوشمن كثيراً ...

قلت (مارثا) فى جدية وهى تجلس على الرمال :

- « اسمعونى .. لا يمكن أن نحقق شيئاً من دون مخاطرة ..
سوف يكون علينا أن نجرب الحركة نحو الشمال .. أعتقد أننا
أعرف الكثير عن (كالاهارى) .. ليس كهؤلاء لكن بما يكفى كي
نظل أحياء إلى أن نقابل وحدات الجيش البتسوالى أو نجدنا طريق
بحث ما .. ما رأيكم ؟ »

تباهت و(فاسيلى) فتفكرت .. هذا هو الاختبار الصعب حقاً ...
كيف أعادوك وهذا أثر فأسك ؟ هل هذا كمين من نوع ما ؟

لم يكن من الممكن أن تطلب منها الانتحار حتى نتناقش نحن الثلاثة في شأنها ؛ لذا التحيث أنا و (المسيلي) جانباً .. وعلى الفور صاح :

- « بحق الشيطان ! إنها تعبت بنا ! »

قلت له :

- « لا داعي لطريقة (بحق للشيطان) الروسية هذه ؛ لأن رحلتنا لا تحتاج إلى المزيد من النحس .. ما أراه أنا هو أنك واهم .. ربما كنت تقدم لنا الحل الوحيد الصحيح .. »

- « وماذا تراه أنت ؟ »

- « نجرب نصف يوم مع إبقاء عيوننا مفتوحة عليها .. لن تقدر على إبداء ثلاثة .. »

هز رأسه وراح يمدح بالسباب الروسي .. عندما يتكلم الشخص بعبارات متلاحقة ووجهه محمر وبصوت خفيض ، فهو لا ينشد إحدى قصائد (بوشكين) .. إنه يصب على الأرجح ..

قلت لها لما عنا :

- « ليكون .. منتحرك .. ولرى أن يتم ذلك الآن .. »

- « للضمن قاسية .. ربما لو انتظرنا الغروب .. »

قالت لى (مارثا) : إنهم

فقاطعتها قائلًا :

- « نعم .. نعم .. يسمح لنا لكنه يحظرنا من الكلبتن (سميث) ..
كل هذا مفهوم .. لكن هل يزودنا بماء وطعام ؟ »

- « بل يعطينا رمحًا ومدية كذلك .. »

- « والمقابل ؟ »

أشارت إلى نظارتى ، وقالت ضاحكة :

- « يعتقد أنها تجعل رؤية القنص أفضل .. »

أنا أتخلى عن عويناتى ؟ مستحيل .. إن الجائع أفضل من
الكفيف على كل حال .. منذ المدرسة الثانوية وأنا أرى العالم من
وراء زجاج النافذة ولا أتصور أن أراه مباشرة ..

هنا نزع (فاسولى) عويناته ، وقال :

- « أعتقد أن حالة بصرى الفضل منك .. سوف أتخلى عنها .. »

تناول البوشمن العوينات ونظر لها فى احترام ، ثم أصدر أوامره
للنساء كي يحضرن لنا القليل مما يملكون .. فى هذا المجتمع تعامل
النساء مثل الرجال على الأرجح .. رأى أن يروق لأى من جمعيات
حقوق المرأة .. الهدائية = معاملة للنساء كأنهن للتد .. التحضر =
المرأة تضى بالبيت والأطفال فقط ..

لكن ضرورات الحياة - كما في أي مجتمع من (الصيادين /
الجامعين) - تحتم أن يكون دور كل من الجنسين محددًا بصرامة ..
لا بد ممن يصطاد وممن يعد السهام .. لا بد ممن يقتل ومن يعد
اللحم ..

هكذا حملنا ليس ما نستطيع حمله بل ما استطاع هؤلاء
البؤساء للتخلي عنه .. عرض أن يعطينا لخدًا من التيتل ، لكن
من دون طهي لا قيمة لشيء كهذا ..

سنجرب لمدة نصف يوم ثم نعود إذا قدرنا على العودة ...
واتطلقنا في رحلتنا نحو الشمال ..

3- المكان الخطأ ..

تمشى (مارثا) فى نشاط وخفة تتقدمنا ..

أسمعها تندن بصوت خافت عذب .. لا أعرف ما تقول ، فلتكرب
ولتنتظر حتى تنهى غناءها ثم أسألها عن معنى هذا .. فتقول :

- « هى أغنية من أغنى البوشمن .. تقول : يوم نموت سيمحو
النسيم الرقيق آثار أقدامنا على قرامل .. بعدما يفنى النسيم ، ترى
من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر للزمان ؟ »

شعرت برهبة ، وسألتها :

- « هل البوشمن يملكون هذا الحس المرهف ؟ هذه الأفكار
عميقة جداً بالنسبة لهؤلاء البدائيين .. »

قالت وهى ترطب خديها بمنديل مبتل :

- « كل حضارة لها علمها الخاص .. ولا يمكن أن تتعرف هذا
العالم من دون أن توغل فيه .. أما لو تعاملت معهم كقردة
زيتونية اللون ، لا يمكن أن تفكر فى شئ غير الطعام والشراب ،
فهذا شأنك .. »

وواصلنا المشى من جديد ..

ستا كالافريزلا موريري مي فا ..

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

يا عزيز عيني واتا بدى أروح بدى ..

تري من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان ؟

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

بدى يا بدى .. و السلطة أخذت ولدى

موريري مي فا ..

يا كالنكا عيني .. واتا نفسي أروح مي فا ..

ستا كالافريزلا أخذت ولدى .. من يخبر الأبدية ؟

جاء الليل ..

من جديد جلسنا في الظلام في تلك المصكر الذي صنعناه في ريع
ساعة .. كفت هناك بقعة عالية نوعا أقرب لهضبة رمالية .. هناك
وهنا من قنور الملح تحيط بها .. هناك عشب كثيف ، لكن لا أشجار

تحجب الرؤية .. البقعة العالقة تتجرح لك رؤية أى شخص يتحرك
عن بعد .. هذا ما قالته (مارثا) الخبيرة بهذه الأمور ..

قمنا بإشعال النار .. هذه للمرة كنا متأهبين .. إن البوشمن
لديهم علب ثقاب غالباً مسروقة .. ليس الأمر سهلاً جداً برغم
هذا ، لأنك لابد أن تجد أغصاناً جافة وتحافظ على الوهج إلى أن
تسترد النار عافيتها ..

قلت لسيمونيتا الجالسة جوارى :

- « لن أدهش لو قلت لى إن البوشمن يستعملون صبار
(الفلوجستين) الذى يحوى كمية هائلة من البنزين والكبروسين ..
يكفى أن تضرب ورقة الصبار فى الأرض لتشتعل وتمنحك الضوء
والدفء ليلة كاملة .. »

ابتسمت فى حزن .. ابتسامة بدت كثيها تشق تجاعيد وجهها
التي تصلبت من الشمس ، وقالت :

- « لن أدهش لما أيضاً .. لكنى أسمع هذا الكلام للفرغ للمرة
الأولى .. »

- « وأنا كذلك .. »

لنار تتوهج وحولها نلتقى .. غرباء لكننا متقاربون جداً ..
لقد جعلتنا المحنة متعارفين منذ قرون ..

قلت له (مارثا) وأنا أشير إلى مساحة صحراوية خالية :

- « فى مثل هذه البقعة رأينا ذلك الشبح يجر ما نعتقد أنه
الطيار .. »

هزت رأسها ولم تعلق ..

بعد قليل بدأت الأجبان تنقل .. أنا لا أجد أثراً للنوم فى عيني
لذا سأكون أول الساهرين .. معى الرمح والمعدة .. هكذا تتأثرت
ثلاثة أجساد مرهقة من حولى ، وتعالى شخير (سيمونيتا) ..
لو كان معى جهاز تسجيل لاندعش الروسى عندما يسمع شخير
حبيبته الرقيقة فى الصباح ..

كان شخيرها مزعجاً فعلاً لذا ركلت طرف حذائها بقدمى ،
فقلبت لتنام على جنبها وانقطع الشخير ..

رحت أرمى للنار ..

لا أعتقد أن معاناتنا ستطول .. منذ يومين كنت على استعداد
أن أقسم لك أننا قد انتهينا .. الآن أعتقد جدباً أننا سننجو .. فقط

فلوجدنا تلك الأحقى الذى يفتش بطائرته أو هؤلاء المخابيل الذين
يقطعون (كالاهارى) الآن بحثاً عن متسللين ..

أشعر بالنعاس يتسلل لى .. طيلة حيلتى لا أقاوم هذا الشعور ..
الإحساس بأن وجهى دافئ وظهري بارد .. ظهور الخبز فى الشتاء
فى تلك القرن فى (شبرا) .. لكف أمام القرن المتقد واللهب يكوى
وجهى ، بينما للبرد القارس خلف ظهري .. صوت ناعس لأم فى
مكان ما من الطاهور تحكى لاهنتها قصة الشاطر حسن .. الصوت
يتسرب لأعصابى .. الصوت والدفء ينوماتنى .. إننى ..

ثم رفعت رأسى مذعوراً ككفه كان مسبباً فى هلوية بلا قرار ..

(فاسبلى) بنام كالقتيل على بعد خطوات ..

غريب أمر الظلال فى هذه الرقعة .. أكاد أقسم أن هذا الظل
الأسود الصغير يتحرك .. يتحرك جوار كفه المفرودة ..

لكن .. ليس هذا ظلاً .. ليس ظلاً على الإطلاق ..

مشيت فى وضع القرفصاء كما يفعل رجل البوشمن .. لأدق
البصر أكثر ..

نعم . لا شك فى هذا ..

هذا عترب .. عترب يزحف وهو يرفع زبانه متأهبا ..

لا أعتقد أنني سأحمل هذا الشعور الكريه ، لكن لا وقت
للهستيريا .. هكذا رفعت حذائي وهويت به على الكائن البشع ..
سكويش ! كنت أخشى هذا الصوت ! تمنيت لو صدر منه صوت
(كراش) ..

ركلت الرمال لأبعده ..

ثم عنت لموضعي السابق ..

هنا لقيت نظرة على (سيمونيكا) التي نامت على جنبها
وكانت قد نزعحت حذاءها طلبا للاسترخاء .. رأيت ظلأ أسود
يزحف جوار قدمها للعارية !

هل هذا مزاح ؟

ركضت حتى بلغت موضع العترب فدستته بشراسة وعنف
وركلت الرمال .. ثم دسّ عليها لأكفنه .. وحانت مني نظرة إلى
(مارثا) ..

لماذا أنت متيقظة يا (مارثا) ؟ لماذا أنت جالسة تنتظرين لي

في ثبات ؟

نمہ ظلِ اسود یزحف جوارِ وجہ (فاسیلی) .. ہمارا فکرت
تماسکی فصرخت فی جنون :

« ۱۱۱۱۱۱۱۱ »

ثم ركضت لأركل هذا العنكب .. ونهض (فاسيلي) مذعوراً
ونهضت (سيمونيّا) .. كان هذا هو الوقت المناسب بالفعل لأن
الرمال كانت تعج بتلك الكائنات .. كلها شريرة المنظر متعصبة
لوجهة نظرها ، تتخذ وضعاً قتالياً ممتازاً ...

— « انهضوا!!! لقد اتخذنا معسكرنا في وسط مستعمرة
عزرب! »

4- الزمان الخطأ ..

الآن يمكنك بلا عناء أن تتصور الفوضى التي حلت بهذه
البقعة الهائلة من (كالاهارى) ..

صراخ .. وثب في الهواء .. ركض على الرمال .. كادت
(سيمونيئا) حافية وهذا لم يجعل الوضع أفضل .. العنارب كانت
هناك .. كادت في كل مكان ..

تخرج من بين الرمال حيث كادت تنبرد من شمس النهار ،
وتقبل نحونا ..

« هناك نوعان من العنارب .. نوع مسلم كهذا والتنوع الآخر
هو القليل الرفيع غير مسلم .. أنا لم أكن لنوع لثاني في حيتى قط !! »
كذا قالت لى (مارثا) عندما كادت صديقتى ..

الآن هي تجثو على ركبتيها وتمد يدها نحو تلك الأشباح ..
الآن هي تلف صالحة :

- « لا داعى للحركات الغريبة ! إنها لا تلدغ إلا من
يوثرها ! »

قولى هذا لسواى .. لقد كان (فلسولى) ناعماً وبرغم هذا اتخذ
العقرب وضعاً هجومياً ممتازاً يحصد عليه أى مدرب
(تايكوندو) فى العالم .. العقارب تلدغ النيام .. من لم يسمع عن
قصة ممثلة ؟

للخلاصة أننا جمعاً حاجياتنا فى هستيريا ورحناً نتواهب
مبتدئين .. فقط بعد ما ابتعدنا مسافة كافية سمعنا (مارثا) تلحق
بنا ..

النار هى الشيء الوحيد الباقى الذى يقول أننا كنا ها هنا ..
بعد ما يطفى للنسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا ها هنا مرة
فى فجر الزمان ؟

قلت لـ (مارثا) وأنا أركض كالقنقلى متواثباً بين الرمال .. أى
ظل اعتبره عقرباً وأتجاهل :

- « كيف اخترت لنا هذا المكان بالذات ؟ المفترض أن خبرتك
بالعقارب علمتك الكثير .. »

- « ومنذ متى اتخذ العقارب الهضاب مسكناً لها ؟ »

كان الحلم لا يفارق مخيلتى ..

العقارب .. العقارب فى كل مكان ..

كلها تطلق صوتاً هو مزيج من فحيح واحتكاك .. تتحرك ..
تتكاثر .. تغمر الوديان .. وعليها أن نجتاز هذا السهل ..

للهرب ! لا سبيل للهرب لأن الرمال تعوق الفرار .. العقارب ..
سوف تلتف حولك .. وتتسلق ساقك .. سوف تحاول أن تتخلص
من بعضها بلا جدوى .. سوف تمسح اثنين فيمسلك سراويلك
ثلاثة .. عندها لن تشعر سوى باللدغة .. لدغات .. ملئت منها ..

لكن (مارثا) تظهر في الأفق .. سوف تنقنا ..

إنها تلبس ثياباً غريبة تذكرك بالكاهنات الوثنيات .. على
صدرها مئات العقارب تتراحم لكنها لا تؤذيها ، وهي تحمل عصا
غريبة الشكل ..

- « نعم يا فتيان .. أنا هي ملكة العقارب ! كان عليكم أن
تتوقعوا ذلك ! »

تتفجر في الضحك .. وأنت تغوص بلا انقطاع في الأرض ...
كنا نركض ونتعثر .. لكننا نبتعد بلا توقف ..

كنا والفتيان الآن نرمق ذلك النهر الذي يلتصع ماؤه في ضوء
النجوم .. نهر في (كالاهارى) ! هذه أغرب صحراء سمعت

عنها في حياتي .. لهذا يفضل العلماء ألا يطلقوا على
(كالاهاري) اسم (صحراء) بل يسمونها (سافلتا جافة) ..
قالت (مارثا) همما كنا نخشى أن تصحو الطبيعة من
غفوتها :

- « نهر (تشوبس) الصافي .. نحن في (بتمواتا) فعلاً ..
ينبع في مرتفعات (أنجولا) ويمر عبر كثبان الرمل ويكبر بينما
يتدفق شرقاً نحو قريته نهر (زامبيزي) .. »

ليس هذا هو المهم .. المهم هي تلك الصالحة السود التي تتجه
في تودة نحو النهر .. أهبال ! أنا الذي كنت أحسب لا وجود
للغيلة هنا ..

نحن نراها بوضوح برغم الظلام وبرغم أننا على بعد مائتي
متر من موضعها ..

أخبرتني (مارثا) أن النهر يستقبل نحو خمسة عشر ألف ليل ..
تتوجه القطعان الصغيرة إلى ضفتي النهر يومياً لتروى قلمأها .
أقرب مصدر للمياه بعد ثمانين كيلومتراً عن هذا النهر المتدفق ،
وهي مسافة يصعب على الغيلة الصغيرة أن تقطعها خصوصاً في
الموسم الجاف .

« الفيلة الصغيرة لا يمكنها استئصال خراطيمها لشرب الماء .
 فيوجد أكثر من ألف عضلة في الخرطوم الصغير ، يحتاج الفيل
 للصغير إلى الوقت ليتعلم السيطرة على خرطومه واستعمالاته
 المتعددة .. »

لما عن الحياة البرية فلا تسمل !

إن هذا النهر مصدر رزق لا ينتهى للمصورين و(ناشيونال
 جيوغرافيكس) وقناة (ديسكافري) ..

لنسر الأفريقى صيد معروف فى هذه المياه ، وتترصد المئات من
 هذه النصور فريستها على ضفتى النهر . وتتجذب آلاف
 الجواميس إلى النهر لتروى ظمأها من مائه .. تطير أسراب طيور
 التنافر التى تتميز بمنقارها الأحمر إما برفقة القطيع وإما تحط على
 ظهور الجواميس . وهى تتغذى من حشرات القرد التى تحملها
 الجواميس ، أو من الدم المتدفق من الجراح أو القروح على
 جملدها .

وملأ عن تلك الصالفة التى تزحف نحو النهر أو تخرج منه ؟

إنها لا تبدو كالأفيل ..

هذه الصلابة هي لفرس النهر .. وهي كالكناك مسالمة ما دامت في الماء ، لكنها على النهر تتحول إلى كالكناك مربعة كصفاحي القلام الصلابة .. هذه الكالكناك شديدة الحرس على منطقتها territorial .. بها تضع علامات على منطقتها بالطريقة المصادة للوهوش .. بالبرق .. من يخترق هذه الحدود انتهى أمره على الأرجح ..

تفرز عدد فرس النهر الجلدية سائلا قرنفلي اللون لصلابة جلدها الحساس الذي يتأثر بسهولة بسبب أشعة الشمس. لذا كان المستكشفون الأوائل يظنون أن فرس النهر يعرق دما.

كان المشهد مهيئاً وشعرت بالشعيرية تزحف على عمودي الفكري ..

سبحان الله ..

هذه من المشاهد التي تخفيها أفريقيا الخجول عن عينيك .. فقط في الليالي القمرية حينما لا يراها أحد تتجه إلى النهر لتكشف عن حصنها الحقيقي الفريد .. ومن أجل مشاهد كهذه أدرك أنني لم أخطر المسهل عندما تركت كل شيء وجلت هنا .. إن للمرأة حياة واحدة ، فمتى يرى مشهداً كهذا ؟

لأبد أنها كانت الساعة الثالثة صباحًا عندما رأينا الضوء ..

توقفنا وتبادلنا النظرات ..

بالفعل كنا نقف أمام مدى من منقعات الصحراء .. شبه طريق
ممهّد يتلوى مبتعدًا واعدًا بالأمل ..

على مسافة مائة متر نرى تلك للسيارة .. سيارة (لاندروفر)
قائمة نحونا ..

تبادلنا النظرات .. هذه هي .. لقد نجونا ..

ضوء السيارة ساطع للغاية .. يحدث الكثير من الأعياب للضوء
في عيوننا المرهقة .. ثم توقفت أمامنا .. إنها حكومية .. يمكن
القول بلا خطأ كبير إنها تخص حرس الحدود في بتسواتا ..

رحنا نتواشّب ونتكلم .. هلموا يا حمقى ! نحن هنا !

أخيرًا توقفت السيارة ورأينا أن فيها أربعة جنود سود ..
جلدهم يلمع كأنه مدهون بالزيت في انعكاس كشافات السيارة ..
منحجّين بالسلاح .. كانوا ينظرون لنا بعيون متسعة متوترة ..

قال (فاسيلي) بالفرنسية ضاحكًا :

- « نحن ضائعون فى الصحراء .. لقد سقطت طائرتنا فى موضع من (كالاهاى) .. لقد أنقذنا البوشمن .. »

لم يتكلم الرجال .. فقط تباهوا وانتظرت وبدأ لى هذا غير مريح ..
قالت (سيمونيتا) بدورها :

- « نحن من وحدة (سافارى) الطبية قرب (ديريان) .. يمكنكم التأكد من هذا .. لابد أن يقاتلتا عنكم .. »

هنا قال أكبرهم وأضخمهم وهو يترجل :

- « لا نهتم بهذه القصص .. أنتم متصلون للحدود .. »

فرنسية رديئة جداً .. خاصة عندما تصدر من هذه الحجرة
الخطيئة ..

هذا معروف .. نحن متصلون .. توقعنا هذا .. سوف تحدث
مشكلة قانونية تستمر بضعة أيام ثم ينتهى كل شيء ..

قال (فاسيلى) فى مرج :

- « لوكن .. نحن هنا إلى قراتكم .. إن السيارة تعد .. »

هنا انطلقت الركلة .. حذاء الضابط الأقويى للثقل استقر فى
معد (فاسلى) فطار مترين للخلف .. صحت فى عصبية :

« أنت تبلى ! قلت لك إنه يمكنك الت .. »

لكن نبتك الهندية كان ثقباً فعلاً .. لقد هوى على مؤخرة
راسى .. سقطت على الأرض وأنا أشعر أنى أصبت بارتجاج ..
لو لم تكن هذه الضربة قد أصابتنى بارتجاج لارتجاج المخ
لاوجود له ، ويجب حذفه من المراجع الطبية ..

فتحت (سيمونيتا) فمها بدورها لتلت صفة بكف غليظة ...
وقف ذلك الضابط أو الأمر فى وسط المجموعة ، ونس يديه
فى حزامه ، وقال :

« لدينا أوامر بإطلاق الرصاص فوراً على المتمثلين .. »

ثم لمعت أسنانه البيض فى فخر ، وقال :

« سيتم إعدادكم هنا والآن ! »

لا يمكن أن يكون جداً .. ليس إعدادنا من مصلحة أى طرف ،
دعك من أنه سبب مشكل دبلوماسية مرعبة أو كشف الأمر ..
صحيح أنه قار على أن يلقنا فى الصحراء حيث لن نعرف

(الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان) لكن يظل هذا
الحنين غير مفهوم ..

هناك أسباب تجعلني لا أشعر بحب شديد لـ (بسموفا) لتي
لا أعرف عنها أي شيء ..

هؤلاء ليسوا جنوداً .. إتهم أوغدا .. ربما هم جنود فارون أو
مرتزقة أو شيء من هذا القبيل .. لكن لماذا هتلتنا ؟ نحن لا نملك
ما يسرق سوى بعض برص التمام ..

هنا فهمت الأمر عندما قل وقد ارتسمت ضحكة الرعاع على
وجهه :

« سننضم الرجلين ونبقى الفتاتين للاستجواب ! »

5- الشخص الخطأ ..

قال الرجل الذى يبدو أنه قائدهم وهو يشير لواحد منهم ..

قال ؟ بالواقع لم أفهم ما قال لأنه كان يكلمه بلغة وطنية ما ، لكن الإيماءات سهلة التفسير .. كنت يا فلان .. تول أمر الرجلين ..

هكذا وثب أحدهم من السيارة وأخرج مسدسًا من حزامه .. أعرف طابع الخطورة الصبغياتى هذا الذى يميز الأفارقة المسلحين .. إنهم يتصرفون بالضبط مثل الصبغى الذى يحمل لعبة مسدس .. غرور القوة والتظاهر بالأهمية .. لهذا لا تكاد القارة البائسة تشفى من الحروب الأهلية واشتباك ميليشيات الجنرال فلان مع ميليشيات الجنرال علان ..

أشار لنا بالمسدس كى نتقدم وراء تلة صغيرة من الرمال .. ودارت السيارة حول عجلاتها الأمامية كى تسقط كشافتها على الموضوع المختار ..

« سننضم الرجلين ونبقى للفتتين للاستجواب .. » هذا ما يجب أن نقوله .. لكن الشطر الثانى هو الهدف طبعًا وهو سبب قتلنا ..

كنا بعد لا نصدق أننا سنموت هنا والآن .. سوف تكون أسف مئة يمكن وصلها ، نحن الذين حسبنا أننا التربنا من

الأمل . دعك من أتنى لا أطيق فكرة أن أموت وأترك الفتاتين مع هؤلاء الأوغاد ..

ما زلت أشعر أن حياتى سيمفونية لم تكتمل من سيمفونيات الأخ (أوست) .. على الصعود الدنيى أو العلى أو الثقافى أو العاطفى لم أبلغ ربع ما أردت بعد ، ومن الخسارة الفادحة أن أموت الآن ..
لهجاء سمعت للضحكة الأنثوية .. ضحكة رفيعة مليئة بالدلال ..

استدريت لأرى ما هناك ، فوجدت فى الظلام (مارثا) فى السيرة مع الجنود فعلاً .. ثم ألهم حرفاً مما تقول لكنهم كانوا مسرورين ..
كأنت تعبت فى جيوب ستراتهم العسكرية كأنها طفلة منهجرة بروية شرطى .. تمد يدها لتعبت بياقة هذا أو ذلك ..

لو كنت ساحرة حقاً ، فقد قررت أن تستغل سحرها .. إن الجنود يبدون كالأطفال فى يدها .. لابد أنها تبدى إعجابها بقوتهم ووساماتهم على طريقة الأطفال .. ياي .. هذا مدمس ؟ كيف تحمله ولا تخلف ؟ كيف يعمل ؟ ما نفع هذا الخنجر ؟ ياي .. حاد جداً .. أنتم شجعان حقاً إذ تحملون أشياء مرعبة كهذه ..

(سيمفونيًا) تقف تراقب هذا كله خير مصدقة .. لسان حالها يقول : أيتها الحرياء المخدعة !

على كل حال لن يؤثر هذا فى مصيرنا كثيراً .. لن يؤثر فى مصير (مارثا) أيضاً ..

أشار لنا الجندي في احترافه كي نفرغ من الأمر .. إجازة
عظيم فعلاً أن يقتل طبيين أعزّين ..

للظلام وضوء الكشافات ..

سيتم هذا بسرعة .. لا تقلق يا (علاء) .. في لحظة أنت هنا
نعم كل شيء ، وفجأة أنت هناك تدرك الحقيقة وتفتح مغاليتي
العلم الكوني .. ترى هل سألني حتى من أعلى كما تتخيل
السيما ؟

تولينا وراء الهضبة فلم نعد نرى السيارة .. الجندي يشعل نفاثة
تبغ ليبدو محترفاً .. ثم يعالج المصدس .. تشبك .. تشاك ..
نظرت إلى (السيلي) ونظر لي ..

لقد مررنا بالكثير ، لكن هناك مرة أخيرة دلعاً ..

سمعنا للطلقة لكنها كانت بعيدة جداً ..

مستحيل أن تكون طلقة مسدس هذا الجندي ..

هنا بدأ الأمر كأنه كابوس .. لقد ظهرت (سيمونيّا) وهي تحمل
بنقلية آلية .. كان الخرق واضحاً من طريقة حملها كأنها تحمل
مكنسة ثقيلة ، لكنها كانت تصوبها نحو الجندي ، وكانت في حال
لا تصدق من الشراسة والهياج ..

صرخت فينا :

« ابتعدا !! »

وضغطت على الزناد لتتطير عشرات الطلقات حول الرجل المذهول وفي الرمال .. لا تستطيع التحكم نهائياً في اتجاه القذيفة ، ورد الفعل بطيرها في كل اتجاه كأنها بالون يتسرب منه الهواء .. لكن فتون الكثرة يصلح على كل حال .. من بين عشرات الطلقات هناك طلقة واحدة على الأكل أصابت الجندي في مقتل .. سقط على الأرض والغافة التبغ لم تفرق شفتيه ..

هنا فقط ألفت بالبنقبة على الأرض وراحت تبكي .. لوئمت بين نراعى (فلسولى) وعجزت عن الكلام نهائياً ..

سألته في رعب :

« الآخرون ؟ »

لم ترد ..

هرعت إلى حيث كنا منذ دقائق فرأيت المنظر كله واحة هوء ..

رأيت الجنود الباقين في السيارة يغطون في نوم عميق ، وإن لتوت وجوههم في لقعة مرعبة .. وكان أحدهم يطل بجذعه خارج السيارة والمسدس في يده .. الممسدس الذى سمعنا صوت طلقاته ..

دنوت أكثر .. رأيت العقارب تزحف على واحدة من الجثث ..
ثمة عقرب نسته (مارثا) فى باقة للرجل فلم يضع وقتاً ..

(مارثا) التى تظاهرت بأنها متبهرة بسحر الجنود دست لكل
منهم عقرباً فى لفاه أو جيبه .. كانت تحمل بضعة عقارب
اتتسلتها من المكان الذى يتنا فيه .. لا بد أنها وضعتها فى قشرة
بيض نعامة لأننى أراها مهشمة على الأرض جوار السيارة ..
أراها بعين الخيال تلف ذراعها حول عنق الجندى ثم باصبعين
طويلين دقيقين - تدربا أعواماً على فن الإمساك بالعقارب - ترفع
العقرب فى الظلام لتدسه بين ثياب الرجل ولحمه .. الجندى
يضحك ويقهقه .. بينما تتركه لتداعب زميله .. لا بد أنهم لم
يفهموا إلا عندما شعر الثثنى باللدغة .. كان هذا هو الوقت الذى
اختلطت فيه (سيمونيتا) البندقية وهرعت لتتجدنا ..

لم أسمع من قبل عن سم عقرب يقتل فى ثوان .. ترى ما نوع
هذه العقارب ؟

على أن الموت خلال ثوان يختلف عن الموت فوراً .. أحد
الجنود أخرج مصدسه وبيد راجفة صوب على (مارثا) وأطلق
الرصاص ، قبل أن يغيب فى وادى الظلام ..

هناك كنت رائدة على الرمال والدم ينبثق من كتفها بلا توقف ..
ركعت جوارها .. الرمال الحمر تتشرب الدم الأحمر فى نهم ..

كان أول ما فكرت في قوله سخيلاً للغاية :

- « لماذا احتفظت بالعقارب ؟ »

قلت بصوت كالفحيح :

- « لم تكن مسلحين .. كنت .. كنت .. أعرف أن هذا سلاح .. سلاح قوى .. جداً .. »

كنت عيناها تغريبان ..

ما معنى هذا ؟ لا أرى إصابة إلا في كتفها .. هل هي تفعل
ذلك بحكم العادة ؟ هل يروى لها مشهد الموت على الرمال بين
أصدقاء باكين ؟

قلت لها في غيظ :

- « لماذا قررت أن تموتى ؟ لا أحد يموت بجرح في كتفه .. »

قلت وشبح ابتسامة يتلاعب على شفيتها :

- « تلقيت عدة لدغات .. لا يمكن أن تمسك بعقرب في الظلام
وسط أربعة عقارب أخرى وتتجو .. فقطط .. طال الأمر معى
لأننى ... »

(لأننى اعتدت لدغات العقارب) .. هذا ما أرايت قوله .. لابد
أن نسبة الأجسام المضادة فى دمها عالية جداً ..

بعد ما بليت شفتيها .. قالت شينا هاسمنا فى لفتى .. لن لقوله
من فضلكم .. اسمحوا لى بهذا ...

ثم شخصت عيناها وكفت عن معارسة ما يمارسه الأحياء ..

هنا سال الدمع حاراً من عيني ..

وسمعت عويل (سيمونيتا) من وراء ظهري ..

لقد أنقذتنا الفتاة .. أنقذتنا للفتتان فى الواقع ..

أعتقد أننا عندما اتهمنا (مارثا) قهنا للشخص الخطأ ..

لكن (مارثا) ماتت قبل أن تعطى تفسيرات كافية لكل شيء ..
باسلة شجاعة سريعة البديهة .. لكنها غامضة كذلك ..

يوم نموت سيمحو للتصميم الرقيق آثار الأمانا على الرمال ..
بعدها يفتنى للتصميم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة
فى فجر الزمان ؟

6- ذكريات وطلقات ..

سمع (جورج ماوويكى) عمل الاتصالات الأقربى صوت محركات الطائرة وهى تتطلق مع ضوء الفجر .. هز كتفيه فى عدم فهم وغمغم :

- « يا للحمير ! »

إنه (فان ثورن) المجنون .. الهولندى الأحمق - على وزن (الهولندى الطائر) - ينطلق للمرة العاشرة على الأقل ليصبح صحراء (كالاهارى) فى موضع قرب (بمسواتا) .. بلذات منطقة نور الملح فى (تشارونج) ..

لقد صار هذا للروتين معتاداً .. سوف يحلق (فان ثورن) فوق المنطقة عدة مرات ، ثم يعود وهو يضع السيجار .. يطلب الإخطار ويطلق السباب للهولندى البذيء جداً .. ولم يمنع (جورج) نفسه قط من الاعتقاد بأن الغباء يرتبط بالإصرار والمثابرة .. فقط الأنكياء يعرفون عدم جدوى الشيء من أول مرة .. ما الذى تغطه سلحفاة الصحراء عندما تنطح الصخرة يومين متواصلين دون أن تفكر لحظة واحدة فى أن تدور حولها ؟ هذا هو الإصرار والمثابرة كما تظنهما ..

أما (فان ثورن) فكان يركب طائرته .. الحقيقة أن (فولفي)
الطيار كان صديقاً عزيزاً ، لكنه كذلك جرب ذات مرة السقوط
بالطائرة في (كالا هاري) .. يذكر جيداً ذعره وتخطئه واختلاط
الاتجاهات .. يذكر الساعات السوداء التي مضت عليه إلى أن وجد
نقطة شرطة هولندية ..

لن ينسى تلك اللحظات ؛ لذا قرر أنه ما دام هناك أحياء فهو
لن يتركهم .. لن يترك أحداً يمر بتلك التجربة القاسية ..

منطقة قدور الملح في (تشابونج) ..

الأغبياء لم يجدوا مكاناً أفضل ..

كان يقود الطائرة وهو يسترجع كلمات (هنريك فان راين)
المكبر العجوز ..

في تلك الليلة جلسوا حول (هنريك فان راين) الذي لم يعد
يصلح لشيء سوى الموت .. لا توجد في أمه سن واحدة
سليمة ، وقد تلف كبده من الكحول من زمن ..

يومها قال لهم (فان راين) :

- « لا يدنون أحدكم من قدور الملح .. (تشابونج) .. أؤكد
لكم ذلك .. أنا كنت هناك .. آخر مرة أطيّر فيها في حياتي للعبنة ..
كنت هناك ورأيتهم في ضوء الشمس .. هياكل هؤلاء البوشمن ..

عشرة هياكل عظمية ملقاة جنباً إلى جنب حتى تجلفها الشمس ..
 فلأشقى إن كنت لكتب .. لقد أصابني الذعر .. تنكرت (سكوتى سميت)
 على الفور .. لمى كاتت تحكى لنا قصته .. مزرعته (ليتلاندشيلن)
 فى (وينكلارى) .. كنا نصحبها تطلق الضلعات .. أُنتم تعرفون كم يكره
 الهولنديون الإنجليز .. (سكوتى) أسكتلندى ؟ لا بهم .. بالنسبة
 لنا لا نعرف الفارق بين إيرلندى وسكوتلندى وبريطانى .. كلهم
 ملاعين وكلهم يتأخسوننا .. »

ثم وضع يده جوار فمه كأنما يكتم صوت الهمس :

- « إيه مدفون هنا فى (أينجتون) .. هل علمتم ذلك ؟ أنا ذهبت
 إلى هناك .. هل تعرفون ما رأيته ؟ لقد نبش قبره !!! (سكوتى)
 العجوز لم يعد نائماً فى قبره .. إيه هناك وسط (كالاهارى) بصطك
 اليوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل اليوشمن يعرفون ذلك .. »

برغمه وجد (فان ثورن) نفسه يرد مقاطع كاملة من المحادثة ،
 ويضحك مع كلمات العجوز ..

لقد مات (فان رابن) .. مات بعد هذه الجلسة بشهر واحد ..
 كان يحتسى الخمر فى المقصف ثم سقط رأسه على المنضدة
 ومات ..

عندما يموت المرء بعد ما يقول كلمة ما فبقها تبقى فى ذاكرة
للناس أكثر وقت ممكن ، ولقد ظلت كلمات الرجل تتردد فى ذهن
(فان ثورن) ..

إنه الآن يحلق فى ضوء الفجر القرمزى نحو الشمال .. من
ناحية اليسار ظلام دامس أولى .. ثم يتدرج إلى اللون الكحلى
للقرمزي .. أما عن يمينه فيرى الشمس كخط أحمر دموى
يتصل إلى الأفق ، بالطريقة التى ننزف بها الدم تحت الماء ..
وكان الطلقة سمكة قرش شمت رائحة الدم فجاءت مسرعة ..
إن السماء ملكه .. لا أحد يحلق هنا سواه .. أفريقيا كلها ملكه ..
يشعر بالنشوة تملكه ..

يرفع رأسه للسماء ويصرخ .. يصرخ ...

يدور مرتين ثم ينخفض أكثر ليرى تلال (كالاهاى) التى
ما زالت داكنة اللون لم يتضح لونها الأحمر بعد ..
فجأة يرى شيئاً يتحرك وسط الكثبان .. بين قنور الملح ..
هناك مجموعة من أشجار (شوكة الجمل) وهذا قشعر يرحف
بينها ..

يحاول للتفريق أكثر لكن الظلام لا يسمح بشيء ..

هل هم هنا ؟ هل هو محارب بوشمن ؟

ربما كان هذا (سكوتى سميت) ؟ وضحك فى سره للفكرة ..
لا يمكنه التاكيد ولا يمكنه الهبوط ..

على كل حال ليست مهمته البحث عن كل شيء .. مهمته محددة
هى العثور على الناجين الخمسة .. لا يمكن القول إن هذا الشبح
منهم ..

هكذا ارتفع بالطائرة ..

هنا دوت الطلقة التى ارتجت لها الصحراء ..

لم يفهم فى البداية وحسب أنه خلل فى المحرك ، لكن الطلقة
الثانية اصطدمت بقمرة القيادة .. إنه يطلق الرصاص ! هذا
المخبول يطلق الرصاص !

ارتفع بالطائرة بسرعة البرق ودار دورة كاملة بحيث صارت
الشمس المشرقة عن يساره ، ثم اندفع عائداً ..

لو أصابت طلقة خزان الوقود فلن تنفجر الطائرة ، لكن من
الوارد أن يجد نفسه ماشياً على قدميه فى (كالاهارى) .. أى
أنه سيشارك مصير هؤلاء الذين خرج لإتقاذهم ..

وشعر بخزى ..

التصر للمحقق المليء بالزهو ، تحول إلى عصفور مذعور
يطرده الصبية بيناتهم ..

منذ ثوان اعتقد أنه امتلك السماء .. الآن يعرف قدره بالضغط ..

فى من المرافقة سرق سيارة أبيه وقادها بمروعة جهنمية فى طريق خارج (أمستردام) .. شعر بأنه ملك الطرقات .. شعر بأنه يملك القدر ويسيطر على الكون .. فجأة اكتشف أن الفرائل تالفة ! سرعان ما تهاوى ملك الأقدار من عليائه ليصير مجرد صبي مذعور يبكى خوفاً .. فقط عندما تذكر ما سمعه من أبيه عن طريقة (النقل العكسى) وعندما رفع قدمه عن دواسة الوقود نهائياً .. عندها بدأ يشعر أنه سيطر على كتلة الحديد المجنونة هذه ..

لكن لماذا أطلق على الرصاص ؟ لماذا ؟

7- البحث عن نحلة ..

« .. إنه هناك وسط (كالاهاى) بصطك البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

« .. إنه هناك وسط (كالاهاى) بصطك البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

صار الأمر خطيراً بحق ..

نحن فعلياً قد انتهكنا حدود (بنسوتا) ومن الواضح أن الأمر لم يمر بسهولة ..

ربما كان هؤلاء الجنود منشقين أو مرتزقة - وأحسبهم كذلك - لكن من الولد فعلاً أن نقابل دورية تطلق علينا الرصاص .. دعك من أننا فعلياً قتلنا أربعة من جنودهم .. على الأقل مات أحدهم رمياً بالرصاص .. لا يمكن التظاهر باللطف والرفقة وعدم الفهم ..

كنا واقفين قرب السيارة .. وقد قمنا بدفن (مارثا) كيما اتفق .. لن ندفن الجنود فهذه مشكلة زملائهم .. سوف تجددهم طائرة

هليوكوبتر بسهولة بمجرد أن تتقطع الاتصالات وهذا يعني أن علينا ألا نضيع ثاقبة أخرى ..

صحت في (سيمونيتا) و(فلسولي) :

- « إلى الجنوب الشرقي ! هكذا يمكن أن نعود إلى أسرة البوشمن .. نحن نعرف بقينا أنهم في جنوب أفريقيا وأنهم لن يقتربوا من حدود (بتسوانا) .. »

قال (فلسولي) :

- « كل هذا جميل .. لكن هل لديك أمل في أن نعرف اتجاهنا من دون (مارثا) ومع هذا الظلام ؟ »

قلت وأنا أنظر إلى السماء :

- « المشكلة أن أوضاع النجوم مقلوبة .. كل شيء يتصرف بشكل خطأ في نصف الكرة الأرضية الجنوبية هذا .. حتى البوصلة لا تفيد .. »

قلت (سيمونيتا) باسمه :

- « انظروا هناك ! »

نظرنا حيث أشارت فرلينا خطأً أحمر بجلال الألق .. كنهه تؤكد
خطته يد كونية على معالم الصحراء .. إنه الفجر .. لقد اقرب ..

« هذا هو الشرق .. يمكننا أن نتجه للجنوب لشرقي بسهولة .. »

عندما تواجه الشرق فإن الجنوب يكون عن يمينك والشمال عن
يسارك والغرب خلفك .. كتاب علوم الصف الرابع الابتدائي ..
على الأمل في أيامي أنا .. يستحيل أن ينسى المرء شيئاً درسه
قبل من العاشرة .. لهذا أشعر أحياناً بأن ما بقى لى فعلاً من كل
هذا التعليم هو القراءة والكتابة والحسابات البسيطة .. حتى
قصار الصور التي نقرأها في صلاتي تعلمتها في تلك السن ..

من دون كلمة أخرى مشينا مسرعين ..

الرمل تعوي الحركة لكن حرارة الجو تقرب إلى البرودة مما
يقترح لنا الحركة بسهولة ..

مما كالأفريز لا مودودي مي أنا ..

كائننا .. كائننا .. كائننا

يا عزيز عني وقا يدي أروح يدي ..

كالتكا .. كالتكا .. كالتكا

بلدى يا بلدى .. و السلطة أخذت ولدى

موريرى مى فا ..

يا كالتكا عنى .. وانا نفسى لروح مى فا ..

ستا كالالريزلا أخذت ولدى ..

خلا غناونا من مقطع .. « ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا
هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟ » .. (مارثا) لم تعد معنا .. لقد
كانت هنا منذ ساعات ثم محا التسميم للرقيق آثار قدميها على
الرمال .. لن تعرف الأبدية أنها كانت هنا ..

كانت رقيقة بأسلة .. وماتت بلاغات العطارب لأنها أرادت أن
تحمينا ..

لماذا تتباطئون .. ؟

لا وقت للتعب ..

إن طائرات الهليكوبتر سريعة ولا تتعب .. يكفى أن تحلق
واحدة منها فى اتجاهنا ولسوف تراثنا فوق الرمال بسهولة ..

لماذا لا تجدنا طائرات النجدة ؟ لأنها لا تعرف عن أى شيء تبحث ولا فى أى اتجاه .. دعك من أنها سريعة لا تسمح بامعان النظر .. أما طيار الهليكوبتر فيعرف عن أى شيء يبحث وأين ، ولديه كل الوقت يسمح الرمال بعينه .. يمكنه أن يهبط متى أراد ..

الآن يصطبغ الجو باللون الأحمر ..

نرى غابة صغيرة من نباتات شوكية الجمل (أكاسيا جيرالفا) وشجرة الرعاة البيضاء الجميلة ..

قلت (سيمونيئا) وهى تلهث :

« لا أهوى للتلال ، لكنى اعتقد أننا نقترب إن لم تكن فى جنوب أفريقيا فعلاً .. نبات (أكاسيا جيرالفا) يوجد فى الجنوب أكثر .. »
قلت لها وأنا ألهث أكثر منها :

« هذا مطمئن ، لكنى أقترح أن نواصل المشى للمزيد من اليقين .. »

عندما ارتفعت الشمس عرفنا أننا يقينا فى (كالاهارى) التى عرفناها ..

لصحراء الحمراء القاسية .. للحرارة .. للجفاف .. لم تعد
هناك أنهار تستحم فيها القبلة في منتصف الليل .. لم تعد هناك
جنان من نبات ثمرة الجمل ..

هذه النقطة تبدو لي مألوفا كتنى دخلت الفيلم في هذا المشهد
بالذات ..

يبدو أننا عتانا نقطة البداية ..

في المرة الأولى أتقنتنا نحلة ربط بها الريش .. ترى كم من
الوقت يجب أن ننتظر حتى نرى نحلة أخرى ؟

8- مهمة ليلية ..

نعود الآن بضع ساعات إلى الوراء ..

نعود إلى كوخ (البوشمن) الجديد الذي غادرناه نحن ..

ليس عند (البوشمن) طقوس تنصيب للرجولة .. أنت تعرف أن كل القبائل البدائية لديها طقوس رجولة تعطن بها أن الفتى المراهق صار رجلاً .. لكن هذه ليست من عادات البوشمن ..

لهذا كان (توى) للصغير بحاجة إلى إثبات نفسه ..

كان يقف في الكوخ ويأتى بحركات توحى بالقتال .. ثم يسرق واحدة من حرايب الرجال الكبار ويتظاهر بأنه يصطاد فريلاً .. الخلاصة أنه كان يمارس كل مخالقات للصبيّة عندنا ..

عندما رحل الغربيون ، وعندما جاء الليل ، كان عليه أن يبيت في الكوخ مع الأطفال .. (توى) الكبير يقف في الخارج يراقب الصحراء كما يحدث في كل ليلة ..

هذه هي اللحظة التي شعر فيها بأن دم الشباب يغلي في عروقه .. من أجل لحظة كهذه يقب الشباب سيارات آبائهم وهم يتسابقون بسرعة جنونية .. ومن أجلها يقف الشاب عندنا على رصيف محطة القطار يثرثر ساعة مع زميله ، فإذا تحرك القطار

وأسرع قرر أن الوقت قد حان للوثب فيه .. من ثم تنزلق يده
ويسقط تحته ..

الإحساس بالفتوة .. الدماء التى تظلى .. هذا هو ما يدفعه
للتوثب والصراخ .. دعك من أنه أكبر طفل فى الأسرة .. لكنه
لم يعد كذلك .. غداً سوف يسمحون له بأشياء أخرى أهم من
اصطياد الضفادع العليقة بالماء ..

هكذا انتظر حتى حل الظلام وتعالى غطيط النسوة والأطفال .
تسلل من الكوخ ..

لفظ رأى بطرف عينه (توى) الكبير يقف خارج الكوخ وقد نثى
ركبته ليربح كف قمحه على ساقه الأخرى .. لوقفة المعتادة للبوشمن ..
للظلام دامن والبوشمن خفيقو الحركة .. لا أحد يمكن أن
يخدع بوشمن سوى بوشمن آخر ..

لهذا لم يجد صعوبة فى الابتعاد عن الكوخ ..

راح يتدحرج فوق الرمال الباردة المظلمة .. يتدحرج مبتعداً
عن موضع الكوخ .. لقد ابتعد كثيراً جداً .. هناك أكمة صغيرة
من أشجار الرعاة .. توغل وسط الأشجار وراح يسند الطعنات
بالرمح لخصوم وهميين ..

هيه .. هيه .. خذ خذ !

البوشمن مسالمون لكن ليس هو .. إنه يعرف كيف يقاتل ..
ولكن ..

فجأة شعر بأن ساقه لا تحمله ..

ما السبب يا ترى ؟

★ ★ ★

عندما لمست لقامله الرمال المبتلة أدرك من لزوجتها ودفنها
أن هذا دم ..

أصابه الهلع وتحسس ساقه أعلى قليلاً .. إنها تنزف .. يرى
ذلك الثقب القبيح في منتصف فخذه .. هناك من أطلق عليه النار
على طريقة البيض في القتل .. تلك المواسير التي تنفث للنار ..
من فعل ذلك ؟

لماذا لم يشعر بأى ألم ؟

راح يزحف على أربع خارجاً من الأيكة وسط الظلام الدامس ..
هنا رأى القدمين ..

الكهنة (سميث) ! الكهنة (سميث) ! الشيطان الذي اعتاد
الكهنة أن يخلطوه به !

(هأرا) غاضب منه .. (هأرا) غاضب منه ..

يرفع رأسه ليرى تلك الأوروس الذي يلبس ثيابًا خلكية ممزقة وفي يده بندقيّة .. هو شيء مشوه بلا وجه تقريبًا .. برز نصف الجمجمة .. اليد القابضة على السلاح أيضًا لم تكن على ما يرام .. كانت عظمية تمامًا .. عيناه تشتعلان كحمرتين من نار ...

كان ينظر له من أعلى ..

ويبد قلبية لمسك برأسه .. كنت تلوح من يده رائحة البارود ..
كان (توى) الآن في مرحلة البكاء .. الآن فقط تذكر أنه لم يزل طفلًا ..

سوف يسمع (توى) الكبير الطلقة .. سوف يهرع ليبحث عن مصدرها لكنه لن يجد شيئًا كما في كل مرة .. وسوف تتقل الأسرة معسكرها مرة أخرى ..

لكنه لن يكون هنا ..

إن ما يحصله كابتن (سميث) هو نصل .. نصل طويل جدًا .. وهو يمسك برأسه .. إذن ...

في الساعة التالية كان لدى كابتن (سميث) عمل كثير ..
لقد جر الجثة مبتعدًا .. مشى كثيرًا جدًا حتى بلغ تلك الموضع البعيد وسط الدور الملح ..

إن الليل يجعل الرمال باردة ، لكنه يعرف أن الشمس ستسطع
بعد قليل ، وسوف تتحول الرمال إلى حمصة حقيقية ..

لقدى بجثة الفتى ، ثم بدأ يمارس الفصل للرهبان الذي قام به
عشرات المرات من قبل ..

إن الكواسر وبنات أوى يمكن أن تؤدي هذا الفصل بشكل
أفضل ، لكنه بحاجة إلى التمرين ..

سوف يصلح هذا المكان ليحضر فيه المزيد من الهياكل
العظمية فيما بعد .. إنه مولع بترك هذه الهياكل متجاورة ، فهذا
يجعل المشهد رهيباً ..

في الظلام يتصاعد الصوت المفزق .. شليك .. شلاك ..
شلوك ..

أشعل بعض النيران لتجعل الرؤية أفضل وراح يواصل
عمله ..

كانت دماء الحجر تفرغ الألق الشرقي عندما انتهت من
مهمته ، وبالفعل كانت بعض الجوارح تحوم في الجو وقد انحلت
الولاية عن بعد ..

سوف يعود الآن ..

من الواضح أنه لا جهة تهتم بهؤلاء البوشمن .. لقد صار
يقوم بهذا العمل كل ليلة تقريبا وبرغم هذا لم يتبه أحد .. ولم
يلاحظه أحد ..

البوشمن لن يجسروا على ملاحظته .. هو يعرف هذا يقينا ..
إنهم يجيدون إكتفاء الأثر ، لكنهم يعرفون جيدا من هو الكابتن
(سميت) ..

سمع صوت الطائرة ..

رفع رأسه ليلمح ذلك للطائر الجارح أزرى اللون يطير نحو
الشمال ..

إنه يدور دورة واسعة .. واضح أنه يلقي نظرة عليه ..

لقد رآه .. هذا أكيد ..

تأمل بتدقيقه الملقاة على الأرض وأحكم التصويب .. لا يتوقع
أن تبلغ الرصاصة هذا المدى لكن ربما بشيء من الحظ يمكن
أن .. إن الطائرة منخفضة على كل حال ...

أطلق رصاصته الأولى فالثانية ..

في هذا الظفر لا تصدر الطلقات صوت (بوم) لكنها تبدو
بصغير من فم عملاق .. صغير يتلوذ ألف صغير بفعل الصدى ..

لقد تلقى الأحمل الرسالة ..

إنه ينتعد ..

وعبر الصحراء الصامتة الخالية تردت ضحكاته ، فرددتها
الجوارح ..

9- فتاة ثانية ..

اسمها (نتومبى فوئى)...

بالنسبة لنا يبدو هذا مجرد اسم لفريقى صعب ، لكنك يجب ان تكون من جنوب الفريقيا كي تميز رنين للزولو الواضح فى هذا الاسم .. معنى الاسم يحمل خيبة الأمل التى لاقها طيلة حياتها .. إن معناه هو (إنها فتاة ثانية !) .. واضح طبعا أنه اسم يطلقه الأب على فتاة رزى بها بينما كان يأمل أن يوزق بولد ..

لهذا علقت (نتومبى فوئى) حياة جديدة باسمها .. لم تشعر قط أن هناك من يريد لها ..

فى من السادسة عشرة جاء ذلك الرجل الأبيض ليطالبها من أبيها .. إنه رجل أسكتلندى .. هذا ما عرفته فيما بعد كما عرفت الكثير من لقاته .. بالنسبة للزولو هى إهانة أن تتزوج ابنتك واحدا ليس من الزولو ، لكن أباهما قبل .. أى أنه ألقاها للكلاب بالمعنى الحرفى للكلمة ..

اسمه (لوشيبالد لينوكس) .. لا تعرف عمله ولا مصدر رزقه ..

فقط هي امراته وله أن يأخذها إلى أى مكان ..

ضخم الجثة .. أحمر الوجه .. ملتج .. له عينان زرقاوان
تبعثان اللهب ..

إنه يشرب الخمر بإفراط ويضربها كثيرا جدا .. كانت
معلوماتها عن الرجال هي أنهم يضربون النساء .. هذا كل ما
تعرفه ..

فقط عندما يصفو مزاجه كان يخبرها بمزيج من لغة للزولو
ولفته الانجليزية أنه (يقدم خدمات لحكومة بتسوقا) .. مرتقى ..
هذا هو ما فهمته من الأمر ..

على كل حال كانت تعرف من لوائمه التي فى البيت
أنه يمارس عملاً شبه عسكري .. بنقوية .. محبسات ..
خناجر .. وكان يغادر الدار عدة أيام ثم يعود وهو يحمل الكثير
من المال ..

لم تكن أسرتها ترحب بها ولا قبيلتها .. هكذا لم يكن فى
جعبتها إلا أن تكون زوجة مطبوعة ..

اسمها (فتومبى فوثى) ..

هى من هؤلاء الذين جاءوا للحياة كى يتلقوا الركلات
ويموتوا فلا يذكرهم أحد .. إتهم كثير .. وهم فى كل ركن من
هذا العالم ..

لكن هذه ليست قصتنا ..

لم يكن (لينوكس) ملاكاً قط فى أية لحظة من حياته .. فقط
كان أقل خيالاً .. كان مجرد زوج متوحش .. وهى لم تسمع قط
عن زوج غير متوحش ..

منذ عام بدأ الأمر يتغير ..

هل وقع هذا بعد الحادث ؟ ربما ..

القصة كما عرفتھا فيما بعد هى أن زوجها كان ثملاً ،
وقد جلس فى حانة قذرة فى (بيربان) ، ولعب الميسر مع
بعض الفتية السود .. عندما خسر رفض أن يدفع لهم ..
قال إتهم سود قذرون وإته ما كان ليلعب مع حيوانات
مثلهم ..

كانت النتيجة هي أنهم أوسعوه ضرباً .. جروه خارج الحقة
وركلوه وضربوه ، ثم جاء أحدهم ببطارية سيارة وسكب ما فيها
من حمض على الأسكتلندي .. على وجهه ويديه ..

فر الفتية مذعورين وقد أدرکوا شناعة ما قلموا به ..

لم يمت زوجها .. لم يفقد عينيه .. لكنه تشوه بشكل مخيف .. لم
يكن هذا ليضايقها كثيراً .. في قرينتها مسنون أصيبوا بالجدرى
ولم تعد رؤية وجوههم محبة .. فقط كانت مستعدة كي تمنحه
رعايتها وحبها لو أنه تغير ..

باللعل تغير .. لا أحد يمر بتجربة كهذه ولا يتغير ..

كان متوحشاً فصار مسعوراً .. كان قلماً فصار مجنوناً
تماماً ..

كان أول ما قام به هو أن أخذها إلى صحراء (كالاهارى) ..
لتخذ حياته في كهف هناك .. كهوف (كالاهارى) واسعة تسمح
بحياة أسرة ، والطريف أن هذا الكهف بالذات - قرب منطقة
تشابونج - كان مخفر شرطة بريطاني في الماضي .. ربما لوائل
القرن العشرين ..

هكذا وجدت أنها تعيش حياة بدت لها - وهي من الزولو -
بدائية جدًا .. تشعل النار بطريقة بدائية ، وتستعمل الماء الذى
يجلبه لها من مكان مجهول .. تظهو الصيد الذى يأتى به ..

فى المساء يخرج ليقوم بجولة وهو مدجج بالسلاح النارى
والأبيض ، ثم يعود فى الصباح مرهقًا ملطخًا بالدم .. ينام ...

من حين لآخر يقابل عربة لاندروفر تستعمل أحد المدقات
القديمية ، لتحمل له ما يلزمه من خمر .. وهو حريص على ألا يعرف
أحد موضع هذا الكهف ..

لقد كف عن الكلام نهائيًا .. فقط عناء ترسلان الثمر طيلة
الوقت ..

فى بعض الليالى تخرج من الكهف لتجده واقفا يصرخ فى
لا أحد .. يلوح بذراعيه ويلكم بقبضته الهواء ، ويطلق شتمكم
بلقته التى لا تعرف أكثرها ..

فإذا شعر بها استدار ونظر لها بعنى الثمر .. ويقول :

- « إتهم هناك .. ينتظرون كارتب خائفة .. هل تفهمين

هذا ؟ »

ثم يوسعها ضرباً بلا سبب ..

لنقط في إحدى الليالي قال لها :

- « غريبة هي ألعاب الحظ .. طائرة تسقط على بعد مائة متر من موضع في الصحراء .. بوف ! كان المشهد مريباً .. مقدمة الطائرة تنفرد تحت الرمال وتسطح لمسافة مائتي متر .. أنا كنت هناك .. جريت إلى موضع الطائرة واختلست النظر عبر النوافذ .. رأيتهم جميعاً فاقدى الوعي .. راقبت هؤلاء الأوروبيين من مكنتي .. لا أحد يستطيع العثور على (سكوتى سميت) أبداً .. »

لا تعرف لماذا صار يطلق على نفسه هذا الاسم .. لكنها قبلت حقيقة أن (سكوتى سميت) هو زوجها ..

مسح فمه بعد جرعة سخية من الويسكى ، وقال :

- « راقبتهم يخرجون من الطائرة .. يتكلمون .. رجلان وامرأة .. ثم يعودون للطائرة .. كأنهم يبحثون عن شيء .. بعدها قرروا أن يتبعوا أسيرة من (الميركات) .. تصوري الحمقى ! يعتمدون في النجاة من (كالاهاى) على (الميركات) ! لما تولوا اتجهت إلى الطائرة لأرى ما يمكن أن يوجد في حطامها

من أشياء .. يوف ! لم أعرف أن الطيار الأحق حتى بالداخل ..
خنزير هولندي من (البوير) يحمل مصدنا .. أنا تعاملت مع
الهولنديين وأكرههم كالجذام .. كان مذعورا كالجحيم ولعله
حسبني الشيطان ذاته .. رفع المسدس لكنى ألهمت رأسه بطلقة
من مسدسي أنا .. وجررت جثته خارج الطائرة .. عبت للطائرة ..
لم أجد شيئا ذا بال .. هكذا جررت جثة هذا الخنزير عبر
الصحراء بحثا عن مكان يصلح له ... »

ثم تذكر أنه يثرثر أكثر من اللازم ، فنفع خديه وتجشأ للداخل ،
ثم قال :

.. « لقد قابلت هؤلاء في تلك الليلة .. كانوا مذعورين وهم
يصدقون في غير مصدقين .. لابد أنهم حسبوني شيطانا كما فعل
الطيار ، وفكرت في أن أطلق عليهم الرصاص ثم قررت أنني
لا أسعى وراءهم .. سوف تتكفل بهم الصحراء .. هكذا تركتهم فلم
يجروا واحد منهم على أن يتحرك أو يتبعني .. أروع شيء في
العالم هو أن تكون مرعبا .. لا أحد يجسر على الاعتراض ..
لا أحد يمنعك من نيل ما تريد .. »

ثم صمت وقد تذكر شيئا ..

كانت هي تحاول فهم ما يقول .. فاتها كلام كثير .. على كل حال لو أن أستاذ لغة إنجليزية سمع هذه المحادثة لفاته الكثير كذلك ؛ لأن اللهجة الأسكتلندية مستحيلة الفهم فعلاً ..

صمت زوجها كثيراً ثم تذكر فجأة ..

وجه لها لكمة في فكها فذقتها لتضرب جدار الكهف .. وللمرة الألف سال الدم من أمها ليغرق صدرها ..

وصاح وهو يلوح بالزجاجة الفارغة :

- « أيتها القنطرة ! لماذا تقومين باستجوابي ؟ لو لم يكن بحاجة إليك لفجرت رأسك هنا والآن .. »

اسمها (نتومبي فوثي) ...

معنى اسمها هو (إنها فتاة ثائرة) ..

لهذا كان عليها أن تتحمل قدرها وأن تصمت ..

10- الزوجة ..

فرص الشمس بعنقها واضحة : لنا لا لتفاوض ولا لتسامح !

قلت لهما وأنا أترنح من فرط الإرهاق :

- « من تلك الأحق الذي اقترح أن نترك أسرة البوشمن ؟ »

قال (فاسبلى) وهو يضع نراعه على كتف (سيمونيتا) :

- « (مارثا) .. فليرحمها الله .. »

- « حسن . كنت فكرة غبية .. لقد فتنناها ولتهكنا قوتنا وفتننا

(البوشمن) ضمتنا للوحيد كي نبقى أحياء .. »

هنا صاحت (سيمونيتا) فى خطيبتها مقتظة :

- « ارفع نراعتك .. أنت لا تصرى على بل تزيد الحر سوءاً ..

يبدو لى كأن ساعدك فحم مشتعل ! »

اعتذر لها فى خجل .. الحقيقة أننا كنا فى حال سيئة ..

نحن فى مكان فى الشمال الغربى لجنوب أفريقيا .. فى مكان

ما من (كالا هارى) ..

لكن ماذا بعد ؟

لهجاء رفقت (سيمونيّا) على الأرض .. لا يوجد قتل شجرة
ولا شيء على الإطلاق .. فقط تكرد يديها ونراعتها كلها مصلوبة ،
وتنظر إلى السماء وتقول بعينين مغمضتين في وجه محترق
تمامًا :

- « انتهى الأمر . رحلتى تنتهى هنا .. »

ركلت بعض الرمل في وجهها فلم تنمر أو تستم .. الأمر بهذا
السوء إذن ..

قلت لها محتفًا :

- « أسوأ وقت يقرر فيه المرء أن يموت هو عندما يكون معه
مخزون من الماء والطعام .. عندما كنا مجريدين من أي عون .
كنت نشطة كهرغوثة .. »

قالت مغمضة العينين :

- « لم تفهما بعد ؟ نحن قد كتب علينا الموت في (كالاهلوس) ..
ما نفعه هو تملص بين مخالب الموت .. ربما يطول لكن ما هو
محتوم محتوم .. تسقط بنا الطائرة فننجو .. فقط لنقابل (سكوتى
سميث) فلا يؤثّرنا .. ثم نضيق لثقتنا البوشمن .. فقط لنقع في
قبضة جنود بتسوقيين أو غدا .. نفر منهم لتعود لدائرة الضياع ..
نحن لن نخرج من هنا .. »

قل (فلسفي) وهو يجلس جوارها :

- « لن أذهب لأي مكان من دونك .. »

- « أنت أحمق .. »

- « وأنت حسناء إلى درجة أنني لا أصدق ما أراه .. »

تحسست وجهها وضحكت في مرارة ، وقالت :

- « لقد احترق جلدي بالكامل .. لو نجونا لوجدت لي لوارًا

ممتازة في أفلام (الجياللو) المرعبة .. »

ومسحت بعينها الأنف ، ثم هبت صارخة :

- « هل تريد ؟ هناك ليها الأحمقان ! هناك .. »

تبدلت النظرات مع (فلسفي) .. إما أنه السراب أو أن أعراض

زيادة الضغط الأسبوزي لخلايا المخ قد بدأت .. سوف نفقد هذه

البانسة قريبًا ..

قالت وقد استعادت نشاطها بالكامل :

- « هناك .. عند مجموعة الكهوف تلك .. لقد تحرك شيء .. »

لنا وثقة مما أقول ! »

- « ربما كان حيوانًا ما ؟ »

- « أو ربما بعض البوشمن ! »

ثم نهضت وراحت تركز في تلك الاتجاه .. صاح (فاسيلي) :

« احتفظي بقواك أيتها النعسة ! »

نكلها كانت تتعثر فتتهض .. تتعثر فتتهض .. وسط قدور
الملح الكليية تجرى ونحن وراءها ..

كانت مجموعة الكهوف تقع في تلة ارتفاعها عشرة أمتار ..
حوال أربعة كهوف لها سمت العيون التي تحملق فيها ..

على الأرض وجدت لافتة خشبية بفتها الرمال فأخرجتها ..
كانت عتيقة جداً وقد فتكت بها عوامل التعرية ، لكنني استطعت أن
أقرأ : LICE ...

طبعاً لا أحد يضع لافتة للإعلان عن وجود قمل .. أرجح أن اللافتة
كانت تقول POLICE .. قرأت في مكان ما أن أقسام الشرطة
البريطانية كانت تتخذ مكافأ لها بعض كهوف (كالاهاري) .. لكن هذا
لا يدل على شيء .. نحن نتحدث عن مخفر شرطة كان هنا منذ
مائة عام ..

كانت (سيمونيتا) تتساقى التلة في نشاط .. رشيفة خفيفة جداً
فلا يمكن اللحاق بها ..

صحت في (فاسيلي) الذي كان أسرع مني :

« الحق بها ! هذا الكهف قد يكون مأوى للثعابين أو أسد
(كالاهاري) .. إنها حمقاء ! »

راح يتسلق القلعة ولحقت به محاذراً أن أسقط .. إن الصخور
بارزة جداً تسهل عملية التسلق كثيراً ..

كنت هي الآن في القمة عند أول الكهوف ..

كنت تصيح :

- « هيه ! نحن هنا ! »

في هذه اللحظة لحقتا بها .. وأمسكت (فاسيلي) بمساعدتها
ليعوق حملاتها بعض الشيء .. كنت شبه مجنونة والرمل يتخلل
شعرها ، وهي لا تكف عن بصفه طيلة الوقت ..

لم يكن هناك داع للتفتيش لأننا وجدنا للمرأة تقف عند مدخل
الكهف الثاني ..

امرأة من الزولو كما هو واضح .. تصمة جداً .. قبيحة جداً ..
تلبس ثياباً أوروبية وترمقنا في ذعر .. تلصق ظهرها بجدار
الكهف وترتجف .. كانت تحمل في يدها وعاء به ثياب مبتلة ..
ربة بيت عادية جداً كانت تمارس الغسيل .. فقط هي تعيش في
كهف في (كالا هاري) !

قلت لها بصوت عال :

- « ساكوبونا ! »

لكنها لم ترد ..

قال لها (فاسوني) :

- « نحن ضالعون في هذه الصحراء .. من أنت ؟ هل تفهمين الإنجليزية ؟ »

أنظرت له في ذعر .. ثم قالت بإنجليزية رديئة جداً وشفتاها ترتجفان :

- « أنا زوجة (سكوتى سميث) ! »

11 - بيت الغول ..

اسمها (نتومبي فوئي) ...

وفي الساعة التالية قدمت لنا الطعام والشراب وحكت لنا
بتجليزيتها الرديئة كل ما تعرفه أنت من الفصل التاسع ..

لم تكن تعرف أكثر .. إنها فعلاً لا تعرف زوجها على الإطلاق ..

الغول .. أين كان وهكذا ؟ زوجها لم يكن موجوداً .. كان في إحدى
جولاته للغامضة ، لكنها تعرف يقيناً أنه سيرجع .. هذا ذكرني
بقصص الأطفال الغربية .. زوجي هو الغول ... تعالوا يا أطفال
أخبركم منه .. سوف يعود ويزمجر من منخله : في في فو فام ..
أشم رائحة رجل إنجليزى ..

لا شك أن هذه الفكرة تبهت رجفة في العروى .. فعلاً لا أريد
أن أنتظر حتى أقبله ..

لما عن الكهف نفسه فإن بوسعي أن أصفه لك .. إنه واسع في
مساحة قاعة محاضرات صغيرة .. لابد أن يكون واسعاً إذا كنا
نتحدث عن قسم للشرطة البريطانية المسيطرة على (كالاهارى) ..
كما توقعت كان هناك مخرج آخر ضيق في نهايته ، لكنه مسدود
بباب حديدى ..

هناك فراشان من طراز رخيص .. هناك موقد صغير يعمل بالكبروسين .. هناك مجموعة من الخرائط، ومجموعة صور فوتوغرافية عتيقة .. عتيقة تمت للقرن الماضي .. فى هذه الصور ترى (سكوتى سميث) الحقيقى .. المغامر الذى خلدته التاريخ .. هناك صور أحدث للزوج .. صور تحمل طابع السبعينات .. لم يكن جميلاً كالملاحة .. كان مخيفاً لكن ليس كما رأيناه فى تلك الليلة ..

هناك بنلق وخناجر مطقة .. هناك رماح .. هناك صنابير يبدو أنها تحوى مفرقات أو ذخائر .. كما أن هناك ملفات بالية .. لكونها منها .. واضح أنها لعهد كان هذا الكهف فيه مخفر شرطة ..

هناك الكثير من زجاجات الكحول .. صندوق سيجار .. علب ثياب .. شموع .. هناك برميل ماء ..

اعتقد أن الرجل يملك سيارة أو على اتصال بسيارة ما .. من المستحيل أن ينقل كل هذه الأشياء عبر الصحراء ..

أما الجائزة الكبرى فهي سندس إشارة مع طلقات .. لا أعرف كيف يعمل لكن لن يكون اكتشاف هذا صعباً ..

هكذا جلسنا نتناقش بينما الزوجة التصة ترافقنا فى رعب ..
ثمة شيء مخيف فى هذه المرأة .. لم أعتد أن ألقى بمثلها
مستسلماً لقدره لهذا الحد ..

قلت لـ (فاسيلى) :

- « نحن لا نعرف تفاصيل أى شيء .. لكن من الواضح أن
زوجها هو الذى يفعل هذه الأشياء بالبوشمن .. »

قالت (سيمونيتا) فى لهفة :

- « إن زوجها هو رجل الرمال .. »

لم أعلق على هذه النقطة برغم أننى أعرف الإجابة الصحيحة ..
فتسائل (فاسيلى) :

- « لكن لماذا ؟ »

- « كيف لنا أن نعرف ؟ ربما هو مجنون يعتقد أنه تجسد
(مكوتى سميت) أو شيء من هذا القبيل .. على كل حال لقد
أحرق السود وجهه وهذا جعله وحشاً مسعوراً يبقى الانتقام .. »

- « لاحظ أن اسمه الأصلى (أرشيبالد لينوكس) .. هل تذكران
ما كان اسم (مكوتى سميت) ؟ »

نظرنا له محاولين التذكر ، فقال فخوراً بذاكرته :

- « (جورج ليجر لينوكس) .. يمكن بشيء من الخيال أن نتصور أن زوجها هو حفيد الرجل .. لقد قرر أن يحيى تراث جده العظيم .. لقد كان هو الصيد الأخير في أسرته .. »

بدورى نظرت للخطيبين متسائلاً :

- « هل من أحد يشك الآن فى أنه من قبلنا فى تلك الليلة وحسيناه شبحاً ؟ »

هزأ رأسيهما أن لا ..

- « نحن نعرف الآن أنه هو الذى تسأل لحطام الطائرة وهو قتل (هولفى) لطيار .. لكننا لم نعرف كيف ظفرب (مارثا) .. هناك جزء مفقود من لحظة سقوط الطائرة حتى ظهورها عند البوشمن .. »
وساد للصمت ، ثم نهض (فاسيلى) يتفقد للصناديق ..

أطلق صيحة متحمسة .. نهضت لأرى ما وجدته فرأيتته بحمل مسلسل الإشارة .. يا له من لحق ! بشر غوطى من يكتشف ما شبعنا من اكتشافه منذ زمن .. فجأة يصرخ أحدهم : لشممن ! هذارفع ! إنها تمدنا بالضوء والدفء !!

نظرت إلى المرأة .. إننا نتصرف كأنه لا وجود لها .. برغم كل شيء هذا هو بيتها وهذه الأشياء حاجياتها .. لا يمكن أن تأخذ ما تريد ..

نهضت (سيمونيتا) بدورها تتفقد الصناديق ثم أخرجت لفائف تذكرك برقائى الأومنيوم التى يلفون فيها الطعام ..

قرأت المكتوب على اللفائف ، ثم قالت :

- « هذا نوع من مشاعل الإشارة لدى الجيش البريطانى .. هذه الرقائى تظل مشتعلة لفترة طويلة إذا لامست النار .. »
قلت لها باسمًا :

- « هذا المكان يعطينا أفكارًا رائعة .. »

ومددت يدي فى صندوق .. هذه الأصابع التى تشبه أقلام الرصاص للظليظة مكسوة بالشحم .. لا يجب أن أكون عبقريًا لأفهم أن هذا ديناميت .. التفتت بضعة أصابع منه ودسستها فى جيبى .. فقط أدعو الله ألا ينفجر فى الشمس .. لم أكن أن آخذ عنيتى ثقاب كذلك ..

قال (فاسيلى) :

- « اقترح أن نأخذ ما نستطيع من سلاح .. إن لم نستصله
 قطي الأكل نحرمة منه .. »
 - « هذه فكرة لا بأس بها .. »

دسمت مهندسين في حزامي كاتني محترف ، بينما أخذ
 هو بندقية .. (سيمونيتا) الرقيقة أخذت خنجراً .. إنها جربت
 القتل بالسلاح الناري على كل حال ويبدو أنها راغبة في
 التتويج .. هكذا بدأ منظرونا كالحمر العقدة من الحقل عند
 الغروب ..

كانت الزوجة الآن قد تبعت لصلبة السلب المنظمة .. لذا
 قررت أن تحتج ..

- « لا . لا .. لن تأخذوا أي شيء .. (سكوتى) سوف .. »
 قلت لها في هدوء :

- « لا أدري إن كنت تفهمين كلامي .. لكن زوجك سفاح
 ونحن باتسون .. هذه التركيبة تعنى أننا سناخذ ما نريد مهما
 اعترضت .. »

فجأة دوت الطلقة التي ارتج لها الكهف ..

احتجنا لوقت أطول من اللازم كي نفهم أنها طليقة رصاص
وأنها جاءت من الخارج ..

وسمعا ذلك الصوت القليظ الشبيه بصوت أسد جريح بصرخ :

- « اخرجي والثلاثة الذين معك أيتها الكلبة السوداء !
لا تفكري شيئا فأنار أقدامهم واضحة على الرمال .. لا أحد
يستطيع خداع (سكوتى سميت) .. لا أحد ! »

12- خطط بلهاء ..

من جديد نوت طليقة .. ثم أخرى ..

متى قلت إن الطليقات في الصحراء لا تبدو كطليقات بل كعويل
لوز صغير .. يتردد ثم تليه صرخات أخرى هي الصدى .. ؟

إن الرجل يطلق الرصاص على كهف من الخارج ، وهو يطلق
بينهم وجشع كله سيتقاضى مالا إذا فرغ طليقته بسرعة .. واضح أن
غير هذه الطليقات غير طبيعي .. واضح كذلك أنه لو خرجت
ذهابة من الكهف لظفر بها ..

لوح (فاسيلي) بالبلندقية وهرع إلى المدخل ، فجنبتة من
فراعه سلاحا بالعربية : (يخرّب بيتك !) ، ثم أريفت بالإنجليزية :

« ماذا تفعل أيها المخبول ١٢ »

طبيب لم يطلق سلاحا ناريا في حياته .. طبيب أعطى
عويناته هدية للبوشمن .. يبرز من مكان واضح مكشوف
للعيان ، ليبادل قتلًا محترفا ذا خبرة عسكرية الطليقات .. قتلًا
لا نعرف أين هو .. لو عاش هذا الطبيب أكثر من عشر ثمانية فلنا
أحمى ..

هنا اندفعت المرأة لمدخل الكهف وهي تقول كلامًا كثيرًا بلغة الزولو ..

ماذا تقول ؟ لا أعرف .. لكنه على الأرجح من طراز (لا نذب لى يا سكوتى .. هم من القبح المكان .. لا تطلق الرصاص) .. لابد أنه شيء من هذا القبيل ..

حاولت أن أعرض طريقها لكنها لم ترحبني جانبًا ..

خرجت من الكهف وسمعتها تتكلم ثم دوى الصفير من جديد .. توقفت عن الكلام فجأة وبعين الخيال رأيتها تتدحرج من فوق التلة لتسقط على الرمال وتتلف ..

بالفعل لم يستغرق الأمر أكثر من ربع ثانية ..

لم تكن طلقة واحدة بل طلقتين .. ثلاث .. أربع ..

ونظرت إلى الخطيبين فوجدت (المسولى) يدفن وجهه فى يديه ، و(سيمونيتا) تنظر لى فى ذهول ..

لقد قتل الرجل زوجته .. ومن جديد عادت الطلقات تنهمر على الكهف ..

إنه مخبول تمامًا وفى حالة غير مسبوقة من عدم الاستقرار النفسى ..

لا أعتقد أنه يستند على ذلك .. لا شك أنه يحشو هذه البندقية
خلال ثوان ..

لا يمكن الخروج من هنا ..

اسمها (نتومبي فوئي)...

ومن الواضح أنه لم تعد هناك فتاة ثاقبة ..

هرعت إلى مؤخرة الكهف حيث كان المخرج الثاني .. أخرجت
المسدس وفرت نراعى عن آخرها وأمرت وجهي للجانب الآخر ،
وانتظرت حتى دوى صوت طلقة أخرى من بندقية (سكوتى) ،
ثم ضغطت الزناد .. كنت أصوب على الجنزير القليل الذي يلقى
البوابة ..

فتحت عيني بينما أُنْزِلُ تصلران بلا انقطاع .. ورائحة البارود
تخفق أنفاسي ..

لم يكن الجنزير قد تأثر .. لذا أطلقت عليه من جديد ..

فى هذه المرة تداعى .. ومسحبه من موضعه وفحت البوابة ..

هتفت (سيمونيتا) :

- « من أبقانا أنه ليس بانتظارنا فى الجهة الأخرى ؟ إنه
شيطان .. »

قلت فى نفاذ صبر :

- « سنقامر بحظنا .. على كل حال طلقته مستمرة من الجهة
الأخرى حيث المدخل الرئيس .. أعتقد أنه مطمئن إلى أن للكهف
مقل من هنا .. »

ومر عان ما كنت أخرج متوقفا رصاصة تنهى قصتى
للصاخبة ..

كنت أتسلق تلة صخرية عالية .. بالطبع (سكوتى) يقف
أسفل الجانب الآخر من التلة .. تسلفت أكثر حتى بلغت موضعا
مستويا فرقبت مسطحا أرقب الصحراء من حولى ..

لمست يد كاحلى فارتجفت هلعا .. ثم تبينت أنه (فاسيلى)
بلحق بى .. بعد هذا جاءت (سيمونيتا) .. لا بأس بهذا الموضع ..
إنه مرتفع لمن يهاجته أحد من أعلى ..

في حذر زحفت على بطنى حتى اقتربت من الجهة الأخرى
للثقة .. من جديد تدوى طلقة ثم طلقة .. الصفير يصم أبنى
والرمال تتطاير ..

من موضعى هذا أرى للصحراء تحتى وأرى جثة للزوجة
للراثة وسط الرمال .. لما نقت أكثر رأيت ذلك الرجل الذى
يحمل بندقية ويتسلق الصخور كالشيطان .. كان مدججا بالسلاح
الأبيض والنارى .. لكنه كان تحتى .. كان تحت سيطرتى ..
غافلاً .. لا يعرف أبنى هناك ..

نظرت للمصدم فى يدى .. هذا ليس من اللام (سيرجيو
ليونى) حتى أرويه بطلقة رصاص .. دعك من أبنى أسوارام
عرفته فى حياتى .. سوف تطيش الطلقة وتكشف عن مكنتنا
للممتاز ..

استكرت إلى (فامبولى) ، وفكت له همناً :

- « به يتسلق إلى الكهف الآن .. لا أضمن النتائج لو أطلقت
الرصاص عليه .. أخرج أن نحول غلق الكهف وهو بداخله .. »

- « وكيف ؟ »

أخرجت إصبعي ديناميت وتناولته علبة ثقاب ..

- « سوف ألقى بإصبع مشتعل فى الكهف من ناحيتي .. وسوف
تفعل الشيء ذاته فى مؤخرة الكهف .. اعتقد أن انهيارا سيحدث ..
هذا الانهيار سيسجنه بالداخل .. »

هز رأسه فى عدم التنازع .. هذه الحلول السينمائية فكما تجدى ..
أعرف هذا للأسف ..

قلت له فى توحش :

- « هل تجد حلاً آخر ؟ »

لا .. هكذا زحفت على بطني ممسكاً بالديناميت إلى حيث
صرت أرى فتحة الكهف بوضوح .. لا أثر للرجل .. واضح أنه
دخل الكهف فعلاً ..

هنا سمعت (فامبولي) يصرخ من ناحيته ..

نهضت لأرى ما هنالك ..

وجدته نائماً على بطنه بطل فى هلع إلى أسفل ..

نظرت من فوق الحالة لأرى ما يراه ..

رأيت (سكوتى سميت) يتسلى متجهاً لحونا من تلك الجهة ..
 فى الواقع كان على بعد مترين أو ثلاثة من الحافة التى نقف
 عليها .. فى عنقه نظرة متوحشة مجنونة لا شك فيها ، وقد تكفل
 وجهه للذائب بجعله يبدو كالشيطان فلادما ليستلب ارواحنا ..
 كانت بندقيته على كتفه ، وقد أطبق أسنانه على خنجر كانه
 قرصان يتسلى صارى سفينة ..

لقد استنتج خطتنا ودار حول الكهف !

لو لم ننظر أسفلنا لوجدناه فوق رؤوسنا فجأة !

13 - فلتمرأيها الأحق ..

كان قريباً جداً .. من المستحيل أن أخطأه .. حتى لو كنت
أسوأ رام في العالم وأحصيني كذلك ..

فيما بعد ذكروني أن أحكى لكم دعات الغربيين عن الرجل
الذي يفشل في إصابة بنوبة بمدفع وهو داخلها ! أو الذي يطلق
الرصاص على رأسه فيقتل رجلاً في لول الشارع .. لنا من هذا
الطراز ، لكن هذا ليس الوقت المناسب لو لاحظتم ..

هكذا ضغطت على لسنتي وأحكمت التصويب .. لا مجال
للتردد ..

لو كنت متردداً فعليك أن تتذكر زوجته التي ماتت منذ دقيقة ..
تذكر (لوفلي) لطيار .. تذكر (مارثا) .. تذكر هياكل البوشمن ..
لو ترددت بعد هذا فلنا كلن رغو بلا إرادة ..

بوت الطلقات .. لكنه كان مستمراً في التصاق .. طلقة .. طلقتان ..
مع الطلقة الثالثة بدا غير مصدق .. ورأيت الدم ينتحمن من
ثقب في جبينه ..

وتخلت مخالبه عن الحافة فتخرج إلى أسفل ..

(علاء عهد العظيم) يقيم ميزان العدالة بيده للمرة له ...
لاأذكر كم .. هل هذا من حقه ؟ أعتقد أنه من حقه هنا والآن ..
ولو لم يفعل لتحول إلى جثة أخرى .. لتحولنا إلى ثلاث جثث ..
تلتهمها الضباع ..

لو كان هناك سبيل آخر لإقامة العدالة لاتخذته ، لكن للرجل لم
يترك لي الخيار .. هذه حالة دفاع مشروع عن النفس ..
إنه يسقط لأسفل .. يسقط .. يسقط .. يرتطم بالحجارة ثم
يرتد .. إنه يسقط ..

إنه يتكوم فوق الرمال الحمر وينزف ..

(سيمونيتا) سقطت على ركبتيها وراحت تؤذي مزيجا من
العويل والبكاء ولطم الخدين .. كل هذا كثير .. كل هذا العنف
لا يقدر جهاز عصبى على تحمله ..

أما أنا فارتعيت على ظهري في وضع المصلوب كما قطعت هي
منذ ساعة .. ورحت أحدى في السماء ..

لقد مات (ميكوتى سميت) من جديد ..

مات الصياد الأخير ..

الأخير فى مهنته الغريبة ..

والأخير فى سلالة على الأرجح .. إن آخر السلالة بجن كما
هى العادة .. تأمل تاريخ الرومان وسواهم ..

لو كانت هناك مزية لهذا الذى فعلته فهى أن أى (بوشمن)
لن يموت قتيلاً بعد اليوم ..

(فاسيلى) أيضاً رقد منها ..

لا أعرف كم مر من الوقت علينا فى هذا الحال ، لكن الشمس
لم تعد تحرق عيوننا ووجوهنا كما كانت .. لقد بدت تتحدر نوعاً ..

ريح باردة بدأت تتسلل لنا هناك فوق تلك التلة المرتفعة ..

قالت (سيمونيتا) دون أن تنهض :

« اعتقد أننا سنقيم فى هذا الكهف .. من الآن فصاعداً .. »

— « ربما بهاجمنا شبح (سكوتى) .. كانت أمى تعتقد أن
الأرواح تبقى معاً لفترة بعد الوفاة .. فى حكايات العجائز تتدرج
هذه الفترة من 24 ساعة إلى أربعين يوماً .. »

— « الشبح البائس لن يتحمل هذا الحر .. »

قلت وأنا أنهض لأول مرة منذ فترة طويلة :

- « أولاً : يجب أن ندفن الجثتين .. اعتقد أننا سنجد ما يصلح لهذا في الكهف .. ثانياً : لابد من أن نعد عتتنا لليل .. »
وترجلنا من التلة ..

وهكذا رحلت و(فاسيلي) نقوم بتلك المهمة الكريهة كما فعلنا مع (مارثا) .. قبران عميقان على قدر ما استطعنا .. جثة في كل قبر .. طبقة من الرمال الحمراء .. لا أعرف إن كانت حيوانات الصحراء تنبش لهذا العمق ، لكننا فعلنا ما استطعنا ..

في الوقت ذاته كنت (سيمونيتا) تلص رقائى الألومنيوم الوهاجة هذه كما اتلفتنا ..

عندما فرغنا ركعنا على الرمال جوارها ورحنا نعاونها ..

- « حذار وإلا نغدت الرقائى بسرعة .. يجب أن نقتصد .. »

- « لو اقتصدنا لانطفى الغرض منها .. »

كنت لعلية ممة طويلة لكننا قتهينا منها قبل اكتمال الغروب .. قبل أن ترتعى ظلالنا داكنة طويلة على الرمال ..

ورحنا نضع قطعاً من الحجارة لتثبت أطراف التشكيل الذى
صنعه ..

كان عملاً فنياً عبقرياً لكنك لن تستطيع فهمه إلا لو رأيته من
طائرة ..

فى اللحظة المناسبة سوف يشتعل طرف الحروف من ثم ينتقل
الذهب ليشتعل فى التشكيل كله ، وسوف يرى الطيار بشكل
واضح نارا مشتعلة فى قلام الصحراء تخبره أنه :

SOS

وهى المعادل اللفظى لشفرة مورس (ثلاث نقاط .. ثلاث
شرط .. ثلاث نقاط) التى كانت السفن الألمانية تستعملها لدى
الغرقى ، ولبست بمعنى (أنقذوا أرواحنا Save our souls) كما
يعتقد أكثر الناس .. بما أن أغلب الطائرات التى مرت بنا
مرت فجراً أو قرب الغروب فإن احتمال أن يروا الذهب عالية
جداً ..

لكن المشكلة هنا هى أن الطائرة - لو وجدت - لن تحلق فوقنا
إلا للحظات ، وهذا الورق لن يشتعل إلا للحظات ..

لهذا صار من الواجب أن تتسقى ورديات منتظمة .. هناك من
يجلس جوار هذا التشكيل ويصفى لصوت الطائرات مستعداً بعبئة
ثقالب ، ومن مهامه كذلك أن ينظف الشكل ويزيح عنه أية رمال
تذروها للريح .. بينما يمارس الآخرون حياتيهما ..

حياتيهما ؟

فهما بعد اكتشفت أنه لم تعد لنا حياة إلا هذه الرقعة ..
في الحقيقة صرنا نقضى أكثر الوقت جوارها ننظر للسماء
وننتظر ..

سوف يأتي الطائر الحديدى من قلمك (هبذ) .. سوف
يكون على متنه تلك الشمالى الأسطر قوى العضلات .. ينظر لنا
من عل ويقرر أن يهبط لينقنا ليحملنا مثل الفيلكبرى إلى
(فالهالا) على نصات (فالجر) القوية التحسية ..

أراه بعين الخيال يرمى رمال الصحراء ويتسم عارفاً أنه
الموعد المختار .. لا ببقية قلبه ولا ثقية بعده ..

فلنمر أيها الأحقى ! جرب تلك الآن ..

SOS - 14

لسبب ما أتذكر كلمات (على محمود طه) فى (الجنود) إذ يقول بصوت (عبد الوهاب) الرخيم : « آه لو كنت معى .. » آه لو كنت يا (برنات) معى !

تجربة غريبة هى .. غريبة وساحرة أن تقضى حياتك فى كهف وسط صحراء (كالا هارى) .. تمنيت لو كانت زوجتى (برنات) معى هنا .. ثم أتذكر أن الوقت ليس وقت الرومانسية ، وأتأنا غرقنا بالدم حتى صار من العسير أن نجف .. هكذا كنت أشعر بأننى مراهق سخيف ..

برغم كل شيء نحن فى وضع ممتاز .. هناك طعام وماوى .. هناك سلاح ..

أتذكر كلمات (سيمونيتا) فى لحظة قوطها : « ما نفعه هو تخلص بين مخلب الموت .. ربما يطول لكن ما هو محتوم محتوم .. تسقط بنا الطائرة فننجو .. فقط لنقابل (سكوتى سميث) فلا يؤذينا .. ثم نضيع فينقذنا البوشمن .. فقط لنقع فى قبضة جنود بتسوانيين لوغلا .. نلزم منهم لتعود لدائرة الضياع .. نحن لن نخرج من هنا .. »

أضيف لما قالته أننا ننجو من الضياع لنقع فى قبضة (سكوتى سميث) .. وننجو من (سكوتى سميث) لنعيش هذه الحياة القلبية

الساحرة فى كهف فى الصحراء .. أنا أعرف يقيناً أن هذا السكوتى سميت كان على اتصال بالعالم الخارجى .. هو ليس (حى بن يقظان) أو (روبنسون كروزو) .. لابد من سيارة أو أشخاص يجلبون له المؤن ، ونحن سنلقى هؤلاء ..

هناك مصيبة قادمة .. لا أعرف ما هى لكنها آتية حتماً ..

حياتنا جميلة فعلاً هنا ..

الرجلان يقومان بالاستكشاف وإعداد الكهف ليكون أكثر راحة .. الفتاة تطهو المخلبات التى نجدها .. قراءة المخطوطات فى المساء على ضوء شمعة .. الجلوس فى الصحراء المظلمة الساكنة ليلاً ومراقبة النجوم فى صورتها الأولى كما خلقها الله .. ثم النوم فى الكهف أو على الرمال .. لاحظ أن ألدنا يظل ساهراً للأبد .. اعتقد أننا لمضينا يومين أو أكثر ..

لكنى لاحظت أننا نروح ونجىء ثم نعود لذات البقعة .. جوار علامة SOS العملاقة . نرفع عيوننا للسماء وننتظر .. معنى هذا أننا لم نناقلم بعد لهذه الدرجة .. ما زلنا نفكر فى الشوارع والسيارات والتلفزيون ..

لم لكن أعرف أن اسمه (فان ثورن) .. لقد نسينا الجميع
على ما اعتقد .. لكن (فان ثورن) الذي يشبه أبطال القصص
المصورة كان كالشعراء الذين تسيطر عليهم فكرة واحدة .. لم
يكن ينوي التوقف عن مسح المنطقة ..

هكذا جاء ذلك اليوم الذي بدأت الشمس تتحدر فيه وراء
الكهوف ..

كنا (ميمونيوتا) تعد لنا طعام العشاء من بعض الفواكه التي
حصلنا عليها من الهوشمن .. وكان (فاسيلي) يلبس شيئاً ما على
مدخل الكهف ..

نظرت إلى رمال الصحراء حيث يرتص قلل الكهوف إلى بعد ..

هنا رأيت ذلك الكائن الذي ملأ قلبي طرباً .. الميركات العزيز ..
النمس الذي يقف على ساقيه الخلفيتين متشجماً الهواء في
فضول .. أسيرة كاملة .. مجموعة من العيون السوداء التي تجمع
بين الوداعة والفضول والوجل تنظر لي ..

أجمل ما في هذا الكائن أنه لا يقترب منك أبداً ولا يبتعد .. إنه
الفضول مجسداً ..

أنقبت نحو تلك الأسيرة بقطعة من اللحم المقدد الذي يحتفظ به
الفتيد (سكوتى) ..

لكنها لم تنال بين كلتي ليلة .. رأيت تلك الحوادث ترفع رءوسها
المشرقية لأعلى أصلاً إلى السماء .. لكنها تصفى لشيء ..
بالفعل هو كذلك ..

محرك طائرة .. محرك طائرة قادم من لا مكان ..
في ذات اللحظة وثب (فلسيلى) من أعلى صاروخاً :
- « طائرة ! »

ولفت (سيمونيتا) ما بيدها على الرمل ، وصلت :
- « طائرة ! »

ومددت يداً ترتجف لأشعل الرقائى .. لن تتكرر هذه الفرصة
أبداً فالساعة ساعة وهن ضوء .. الغمضة مستعمل نيراننا عالية
جداً واضحة جداً ..

يجرى للهب على الرقائى .. بسرعة .. بسرعة ..

يتوهج المعدن .. وعلى مساحة شاسعة من الرمل تبلغ نحو
عشرة أمتار عرضاً وستة طولاً اشتعلت الكلمة SOS .. وشعرت
بالقشعريرة من روعة ولعة وضخامة ما قمنا به ..

أقننا أيها الغبي .. أقننا يا أحمق !

مددت يدي إلى حزامي لأخذ الجزء الثقى من الخطة .. فقط
يجب أن يحوم حولنا أولاً ..

ظهرت الطائرة أخيراً .. نراها بوضوح .. كشافتها مضاءة
 فى هذه الساعة للسوداء التى يتداخل فيها الإبصار مع العصى ..
 للالكبرى آت من أجلنا نحن ..

لن يفلت .. سيرانا .. أعرف هذا .. أؤمن به ..
 يا رب !

(سيمونيتا) تبتهل بعبارات ذات طابع كاثوليكي واضح ، بينما
 (فاسيلي) - الذى قال إنه ملحد مراراً - يردد أدعية بالروسية ..
 لا أعرف ما يقول لكنه بالتأكيد يبتهل لله أن يراتنا هذا للطيّار ..
 الطائرة تدور .. تدور .. ليس لهذا سوى معنى واحد .. لقد
 رأتنا !

تتوارى الطائرة وراء خط الكهوف كأنها دخلت قرص الشمس
 لتتحرر فيه ، ثم هو ذا ظلها يظهر على رمال الصحراء من جديد ..
 هنا قررت أن أنهى الشك باليقين ..

رفعت مهندس الإشارة وأطلقت .. ارتفعت الطلقة المشتعلة فى
 السماء لترسم ذلك القوس الخالد وتوهجت الرمال ووجوهنا ثم
 تلاشت ..

الآن تحوم الطائرة من جديد ..

لا يوجد مكان للهبوط ولو كانت طائرة هليكوبتر لانتهدت
القصة هنا ..

لكنه بالتاكيد يفكر فيما يجب عمله ..

بعد قليل تولت الطائرة وانطفأت النيران .. ساد الصمت وفر
(الميركات) ..

لكن رسالتنا كانت قد بلغت هدفها ..

15- فان ثورن ..

كما توقعا لم يظهر أحد إلا عند الفجر ..

يمكنهم التنقيب عنا بالكشافات فى الظلام ، لكن ما داعى ذلك ؟
إننا استطعنا البقاء أحياء حتى هذه اللحظة فلا يمنع شيء من أن
نبقى أحياء ليلة أخرى ..

كانت ليلة باردة وقد نمنا جميعا فى الكهف ، وكنت أصلى
الفجر عندما سمعت صوت الهليوكوبتر تحلق فوق المكان ..

أيقظت الاثنين بمسرة وخرجنا مسرعين ، إلى حيث كانت
الهليوكوبتر تنحدر إلى الأرض وهى تكور حول نفسها بتلك الطريقة
الغريبة التى لا أعرف أن الهليوكوبتر تعلمها إلا لدى إصابة
مروحة الذيل .. يبدو أنه نوع من (الحرقرة) أو الإبهز .. لا أعرف
بالضبط ..

عاصفة رمل جالحة تهب فى الصحراء بفعل المرونح وتجعل
الرؤية مستحيلة ..

حمرنا عيوننا بألواننا .. بينما راح الوحش المعنى يهدم أخيراً ..

ومن الطائفة ترحل (فان ثورن) .. أنتم تعرفونه من قبل لذا
لن أجرى التعارف ..

كما قلت كان كتلة من العضلات وله ذقن مربعة مشقوفة
ممتازة لتلقى الكلمات .. عندما يرغبون في المرة القادمة في
شخص يؤدي أبواب باتمان أو سوبرمان فعليهم أن يتذكروا هذا
الرجل .. طبعا بعد صبغ رأسه الهولندي الأشقر باللون
الأسود ..

كان يتكلم تلك الإنجليزية اللعينة التي يتكلمها الهولنديون
والتي تخلو من أى حرف (سين) أو (ذال) .. فقط هناك الكثير
من (الشين) و (الجيم) غير المعطشة ..

- « أنا الطيار (فان ثورن) من (أبنجتون) .. أنتم أطباء تلك
الوحدة .. نسيت أسمها .. »

قال (فاسيلي) وهو بصالحه :

- « (سافارى) .. »

- « سافارى .. آه .. أين (فولفى) ؟ »

تبادلنا النظرات .. هذه هي لحظة الحقيقة ..

(فونفى) مات ليها الرجل الضجاع .. نعتقد ان (سكوتى سميت) قتله ..

بدت عليه الحيرة وعدم الفهم .. استدار ليقول أمراً ما للطيار الذى جلس فى الطائرة .. طيار من الزولو كما هو واضح .. وقال لنا مفصلاً :

- « ليست هذه حملة إتقاذ منظمة .. لا أحد يعرف أننى هنا .. هذه طائرة طلبتها على مسئوليتى من (لينجتون) .. للطيار الفريقى يدعى (نيليزيوى) وهو صديقى .. كلهم يعتقد أنكم هلكتم .. »

ثم وضع ذراعاً على كتف (لاسيلى) وذراعاً على كتف (سيمونيتا) ، وقال :

- « هلا لاختتمونى إلى بيتكم ؟ لريد ان اسمع كل هذا بهدوء .. »
هكذا تركنا الطائرة واتجهنا إلى الكهف ..

منذ اللحظة الأولى تصرف (فان ثورن) كصاحب بيت ..

تجه إلى الصناديق للموضوعة وفتح واحدًا منها .. أخرج رجلًا ويسكى - لم أعرف أنا نفسي أن هناك ويسكى عند (سكوتى سميث) - وفتحها وصب لنفسه بعضها .. ثم جلس إلى المنضدة الوحيدة هنا .. هكذا حكى لنا وحكىنا له كل شيء .. ومنه عرفنا قصة حملاته المستمرة وبحته عنا ..

قال لنا :

- « إن الطريقة التي أعلنتم بها عن أنفسكم عبقرية .. يجب أن تدخل كتب سلاح الإشارة .. كان مشهد علامة SOS واضحًا على ارتفاع ساحق .. لابد من أعمى يقود الطائرة كي لا يراها .. »

سألته (سيمونيتا) التي ظلت صامتة حتى تلك اللحظة :

- « ما رأيك في قصة (أرشيبالد لينوكس) (هذه ؟ »

قال وهو يحك شعره الأشقر :

- « لا أستطيع الحكم .. هذا مخبول اعتبر نفسه (سكوتى سميث) .. لا أعرفه لكنني أعرف أن كل البريطانيين مجانين لو طلبتم رأيي الذي لن يخلو من التعصب العرقي طبعًا .. أي هوندى في جنوب إفريقيا يصاب بالحماسية لدى سماع لفظة

(بريطاني) .. سوف نفهم الكثير من هذه الأوراق .. لقد انتهت
 دوركم فى القصة وجاء دور الشرطة .. »

قلت له مشيرًا إلى صندوق على الأرض جوار الجدار :
 - « كل أوراقه هنا .. هناك الطيد من الصور الفوتوغرافية
 كذلك .. »

- « جميل .. جميل .. »

ونفض ممسكًا بالزجاجة ليكملها فى الطريق ، وقال :
 - « سوف نحملكم إلى (أبنجتون) .. ونجد طريقة تعينكم إلى
 وحدة .. نسيت اسمها .. »

- « سافارى .. »

- « نعم .. نعم .. (سافارى) .. »

هنا وضعت (سيمونيتا) يديها فى خصرتها ، وقالت فى شيء
 من تحدأ :

- « سيد (فان ثورن) .. لما نكرت اسم (أرشيبالد لينوكس) ..
 وعرفت أنت على الفور أننا نتحدث عن (سكوتى سميت) ..
 نحن لم نذكر الاسم الأول قط .. هل لديك تفسير ؟ »

هذه هي لحظة الحقيقة !

تبادلت ومن معى النظرات .. كيف لم ألحظ هذا ؟

نظرت إلى (سيمونيتا) ، وقلت :

- « لم يسمع الاسم جيداً يا (سيمونيتا) .. أنا نفسي لم أنتبه لهذا .. عندما أتكلم عن (مايكل جاكسون) وهزيمته فى حرب فيتنام ، فإن عقلك تلقائياً يعرف أن (جاكسون) يعنى (نيكسون) .. هناك نوع من (التصحیح الذاتى اللاشعورى) فى أذهاننا .. »

قالت فى انتصار :

- « ليس عندما تكون عندى صورة (مايكل جاكسون) مع الصيد (فان ثورن) ! »

نظرنا لها فى غباء ، فأردفت :

- « النساء تلاحظ خيراً من الرجال بكثير .. ضمن الصور الخاصة بـ (سكوتى سميث) الجديد كانت صورة له مع طيار هولندى وسيم يقفان أمام طائرة .. هى الطائرة ذاتها .. والطيار هو الصيد (فان ثورن) نفسه ! »

وأشارت إلى ألوم صور ملقى باهمال فوق الصناديق ..

في هذه اللحظة حدث ما نختشاه ..

إن النساء ذليلات للملاحظة لكنهن مندفعات .. كم من امرأة
ورطت زوجها في مشاجرة مع بطل مصارعة ، ثم ولقت تولول
وتصرخ بينما زوجها يتحول إلى كفتة .. عندما تلقين تهديداتك
يا (سيمونيتا) كان عليك أن تفعلين هذا في لحظة نكون فيها
متأهبين .. نكون فيها الأقوى ..

الآن يخرج السيد (فان ثورن) من سترته الجلدية مصدماً
عملاقاً يصوبه لنا .. ويقول :

« اعتكذ أنتي مدين لكم ببعض التفسيرات ! »

16- الشريكان ..

أخرج (فان ثورن) سيجارًا أشطه .. ثم جلس على أحد الصناديق ، وقال :

« يجب أولاً أن لنكر لننى كنت أبحث عنكم لإقناعكم .. هذه حقيقة .. إن (فولفى) كان صديقى وأنا لم أتحمل لحظة أن يكون هناك أحياء ضلوا طريقهم فى هذه الصحراء اللعينة .. أنا أعرفها وأعرف أن فرصة النجاة معدومة .. هذه نقطة .. »

ثم نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

« الجزء الثانى من القصة صحيح تمامًا .. أنا و(أرشيبالد لينوكس) شريكان .. يمكن القول إننا كنا من المرتزقة .. ثم احترق وجهه وجن تملأ ، وتصور أنه تتسلخ روح جده (سكوتى سميت) .. لقد سرق جثمانه من قبره وراح يطارد البوشمن فى صحارى كالاهارى .. كان هذا عملاً قذراً خاصة أننا توقعنا عنه منذ زمن .. »

سألته (سيمونيتا) :

« هل يعنى هذا أنكما كنتما تقتلان البوشمن من أجل الحصول على الهياكل العظمية ؟ »

« ليس بالضبط .. »

قال (فان ثورن) :

« حتى العام 1950 لم يعبأ أحد بالبوشمن ولم يسمع عنهم كثيرون ، حتى صدر كتاب للمؤلف الجنوب أفريقي (فان در بوست) اسمه (عالم كالا هاري المفقود) ، وقد تحول لمسلسل تلفزيوني شهير .. هكذا عرف كل العالم من هم البوشمن .. هؤلاء القوم مشكلة حقيقية .. إن الحضارة لم تعد تقبل وجود هؤلاء ، وأنتم تعرفون كيف يهينهم الجميع .. أحياناً هم البوشمن (أي رجال الأحراش) وأحياناً هم سان (أي الذين لا يملكون) .. حتى كلمة (باساروا Basarwa) التي يقبلها بعض البوشمن باعتبارها أكثرهم إهانة ..

« في هذا الكثير من التعصب والغباء بلا شك .. أنتم أطباء وستفهمون ما أقول بشكل أفضل .. هناك نوع من الجينات على الكروموسوم ٧ الخاص بهؤلاء القوم ، ينتقل نقياً عبر الأجيال .. هذا الجين موجود لدى كل أجناس الأرض وإن كانت أنقى صورة له لدى البوشمن .. هل تعرفون معنى هذا ؟ معناه أنه من البوشمن جاءت كل أجناس الأرض .. إنهم أجدادك بشكل أو بآخر ..

« برغم هذا كان صيد البوشمن نشاطاً رياضياً مسموحاً به .. وفي عام 1870 تقرر أخيراً البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة

الصيد .. آخر رخصة يُسمح بصيد البوشمن أصدرتها ناميبيا عام 1936 .. بعد هذا صار تجويعهم قُرب إلى التضرر ، ولتتم تعرفون أن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف ..

« في التسعينات من القرن العشرين ، راحت حكومة بتسوانا تحاول نقل هؤلاء من المحميات التي بنتها لهم في قلب كالاهارى ، وهي مخالفة دستورية صريحة لأن القانون يكفل لهم المعاملة كمواطنين بتسوانيين .. المشكلة هي أن أماكن إقامة البوشمن الحالية تصلح مزارات سياحية ممتازة .. وهي مهمة للتقريب عن الناس .. إن ثروة من الناس توجد في هذه المناطق ، ومن الصعب أن تضحى بها من أجل حفنة من العراة ..

« عومل البوشمن معاملة قاسية بين طرد بقوات الجيش والتهديد .. إلخ .. تم نسف مضخة الماء الرئيسية التي ترويههم ومنعوا من الصيد والجمع .. هذا هو الوقت الذي وجدت فيه أطراف معينة أنها بحاجة لنشاط المرتفعة .. كنت أنا من المختارين وكان (لينوكس) .. وقد أطلقوا لنا حرية التصرف ، لذا قررنا أن نعد لأذهان هؤلاء البدنيين أسطورة (مكوئي سميت) .. صاحب الفكرة كان حفيده .. قمنا بوضع عمليات محدودة قريبة .. بضعة هياكل بجدها هؤلاء قُرب أكوأخهم كان لها تأثير المسحر ، وقد أخلت مصالح شائعة من أرضهم خوفاً من شبح الكلبين سميت ..

« اليوم يعيش أكثر البوشمن في مصكرات محاصرة ، وهم لا يملكون مصدر رزق سوى بيع زوجاتهم .. هناك من يفرون من هذه المصكرات إلى (كالا هاري) ثنية ..

« في العام 2006 صدر حكم من المحكمة يقول إن نقل البوشمن من محمياتهم الأصلية غير قانوني^(*) .. لكن الحكم لم يلزم الحكومة البشواتية بشيء .. »

سألته عند هذه النقطة :

- « متى نشأ الخلاف بينك و (لينوكس) ؟ »

قال (فان ثورن) :

- « هذه كانت حقبة قذرة من حياتنا .. وقد اعتزلت هذا العمل وصرت طياراً أحياناً .. لكن المخبول (لينوكس) جن تماماً بعد ما احترق وجهه .. اختفى عن الأنظار مع أوراقه وصوره ، وبدأ يقتل البوشمن في كالا هاري ويسلخهم إلى آخر هذا الهراء .. سمعت لقصة مراراً وكنت أعرف جيداً أنه هو المسئول وأنه يبلغ ويجنب الأنظار لنا .. أقتل اثنين أو ثلاثة فلن يهتم أحد .. أقتل واحداً يوماً ولسوف تجد الجيش كله في إترك .. لا أحب أن تطفو القصة للسطح أو تحقق فيها أطراف أخرى .. المشكلة هي أنه يعرف أكثر مما يجب وقد جن . أي أن سمته لم يعد مضموناً ، دعك من أنه قد يموت وتتعرض أوراقه للخطر .. كيف يمكن أن أجده ؟

(*) صدر هذا الحكم بالفعل منذ شهر ونصف عندما تقرأ هذا الكتاب .

منذ أيام خيل لي أنني رأيتهم يمشى بين قدور الملح لكنه أطلق على
للرصاص في جثع فلم أستطع معرفة ما هو أكثر ..

« لكن السيف ظل معلقاً قرب حلقى .. أتم تعرفون الجرائم
ضد الإنسانية وكل هذا الكلام الفارغ .. لا أريد أن أجد نفسي
خلف القضبان بعد ما استقرت بي الأمور .. فجأة وجدتكم في
الصحراء وجدت أنكم قتلتم (لينوكس) وأن كل أوراقه معكم !
هذا حظ حسن لم أتصوره .. هذا دليل على أن الخير يفوز في
النهاية ! كنت أبحث عنكم لأنكم فلتقت نفسي ! »

ثم نظر إلى فوهة مسدده ، وقال بلهجة ذات معنى :

« وضعتم أتم ! »

ونظر لي متسللاً :

« أين الملفات ؟ »

أشرت بلا كلام إلى صندوق في ركن المكان جوار صناديق
للنخيرة ..

اتجه إليه وهو ينظر لنا باسماً ، ووضع الزجاجاة على الأرض
ومد يده يتأكد من أن الملفات موجودة ..

فجأة أطلق صرخة ..

17- رجل الرمال ..

عندما صرخ سقط للمسدس منه على الأرض ..
ورأيت فى رعب أن عقرها يزحف مبتعدًا على الأرض .. لقد
خرج من الصندوق ..
فجأة رأيت ثلاثة عقارب أخرى .. أحدها يتصلق ذراع الرجل
ويغرس زبته فى اللحم بحقد لا شك فيه ..
سقط للرجل على الأرض وهو يصب بالهولندية .. هنا زحف
عقربان ليتسلقا بطنه ..
إن الصندوق ملئ بالعقارب . لا شك فى هذا ..
كان يصرخ ويحاول الحركة .. ثم تصلب تمامًا ..
أخيرًا هدأت جثته .. طيار هولندى وسيم يرقد وجواره على
الأرض مسدس وسيجار وزجاجة ويسكى ما زال السائل يتدفق
منها ..

تبادلنا النظرات فى رعب .. وسألت (سيمونيتا) :
« أنت فتحت هذا الصندوق أمس .. ألميس كذلك ؟ »
قالت وهى ترتجف :

- « ليس أقل من عشر مرات .. لم يكن يحوى إلا ملفات ..
أنت تعرف كما أعرف أن هذا أمر لا يمكن تفسيره .. »
ثم همست وهى تغمض عينيها :

- « (مارثا) ١١ »

قال (فاسيلي) فى رعب :

- « الآن أرى أن الحل الوحيد هو أن نهرع إلى الطائرة
ونتغلب على الطيار .. »

- « يا سلام ؟ والفرار ؟ »

قال وهو يلهث :

- « لدى فكرة لا بأس بها عن الطيران .. كنت فى مدرسة
تعليم طيران فى (كريف) .. على الأقل لن أصطدم بشيء فى
الصحراء .. »

هكذا هرعنا إلى الخارج ..

نزلنا فى المنحدر إلى حيث كانت الطائرة .. سوف نحكى قصة
سخيفة عن المرض الغريب الذى أصاب (فان ثورن) وكيف أننا
بحاجة إلى عون الطيار .. عندما يترجل من الطائرة منضربه
نحن الثلاثة .. لن نتركه فى الصحراء ليموت بل سنحمله معنا
مقيداً ..

وصلنا إلى الطائرة وفرعنا على زجاج قمرة الطيار عدة مرات ..
ثم تهبنا الحقيقة ..

هذا الرجل ليس ناعماً .. هناك عقرب يزحف فوق عنقه ..

حملنا جثة الطيار وتأكدنا من أن الطائرة خالية من العقارب ..
لقد كان فيها خمسة تخلصنا منها ..

وسرعان ما كنا نشب إلى الداخل .. راح (فاسولى) يتحسس
لوحة القيادة ويتذكر ماذا كان يفعل ماذا ..

ثم قال وهو يبتل بطرف لسانه شفته السفلى :

- « مثل السيارة .. مثل السيارة .. »

قلت فى غيظ :

- « هذا لا يطمئننى على الإطلاق .. أنا لا أعرف كيف أقود

سيارة ! »

قال مفكراً وقد بدأت المروحة الكبرى تدور :

- « (لينجتون) .. سوف نقصد (لينجتون) أو أى تجمع بشرى

نلقاه .. »

- « ولا تدخل حدود بتسواتنا من فضلك .. »

- « لا تقلق .. سوف أتجه للجنوب .. فقط الجنوب الشرقي .. »

بدأت الطائرة ترتفع .. الأرض تبتعد .. نراها من أعلى .. نرى
الكهوف .. نرى جثة الطيار .. نرى قبري (سكوتى سميث)
وزوجته .. نرى علامة SOS للمنطفلة التي بدأت الرمال تغطيها ..
نرى الميركات وشجر شوكة الجمل .. نرى الأطباء والوعول
والتيتل ..

نرى (كالاهاري) ...

الرمال تتطاير في كل مكان .. يوم نموت سيححو النسيم
الرقبي آثار أقدامنا على الرمال .. بعدما يغنى النسيم ، نرى من
يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان ؟

كنا نحلق بسرعة الآن عندما صاحت (سيمونيتا) وهي تشير
إلى الأرض :

- « انظرا ! »

لم يكن من الممكن أن نتهم للسراب أو الهلوس بهذا .. إنها
امرأة سمراء تقف وسط الصحراء وتلوح بيدها لنا ..

هتف (فاسيلي) :

- « هل أنزل ؟ .. »

قلت له في جنون :

- « لا .. ربما لا تفكر على الارتفاع ثانية .. غالباً لو هبطنا

لن نجد أى شيء .. »

نحن لم نر (مارثا) .. يجب أن نفتتح بهذا كي لا نجن ..

ثمة أشياء نعرف أنها حدثت ولكن لابد من أن ننساها ..

(مارثا) ساحرة فعلاً .. ظهرت في حياتنا بشكل غير مسبق ..
ولقدننا مرتين بعقاربها .. برغم هذا اختارت أن تقتلها للعقارب
أو هذا ما خيل لنا .. ربما هي لم تمت قط ..

كيف خرجت من الطائرة ؟ حتى هذه اللحظة لم نجد إجابة
مقنعة .. يبدو أن (نظرية الشح) تعمل جيداً بالفعل ..

والطائرة تبتعد ..

هتفت (سيموني) :

- « اعتقد أن (كالا هاري) تخلصت من رجل الرمال ! »

قلت في غموض :

- « تذكرى أن (مارثا) كانت تتكلم عن رجل الرمال ، لكنها لم

تقل قط أنه (سكوتى سميث) .. »

قال (فاسيلي) بصوت عال :

- « هل تريدان رأيي ؟ أرى أن رجل الرمال الحقيقي هو محارب البوشمن .. ليس مثله أحد في الحياة هنا .. إن الرمال مملكته .. »

يوم نموت سيمحو التسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال ..
بعدما يفتى التسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة
في فجر الزمان ؟

يبدو أنني غفوت قليلاً بسبب الاهتزاز وصوت المحرك ..
سمعت آخر كلمات قلتها (مارثا) وهي تلفظ لفاسيها
الأخيرة :

- « أنت .. أنت يا (علاء) رجل الرمال .. منذ تعلقت بك وأنا
أسميك كذا في سرى .. نحن نتخيل مصر صحراء شاسعة ، وبما
لأنك مصري لقد أطلقت عليك هذا الاسم .. لا يوجد رجل رمال
سواك .. على الأقل بالنسبة لى .. »
وشخصت عيناها .. لقد رحلت أو هكذا حسبت ...

رجل الرمال كان أنا .. إذا كنت قد افترضت أنه (سكوتى
سميث) فهذا خطئى وليس خطأها ..

فيما بعد سوف أحاول فهم سبب إعجاب الساحرات بى ..
خاصة إذا كن أفريقيات .. أما الآن فلأنا متعب وأريد أن أنام ..

أريد أن أجد تفسيراً لكن هذا للأسف لا يعطينا كثيراً هنا فى
(سافاري) ..

د. علام عبد العظيم

من قرب ديربان

تمت بحمد الله

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حيا ولكن يظل طبيبا

روايات مصرية للجيب



و. محمد غنيم

الأخير

يومها قال لهم (غان راين) :

.. لا يدنون أحدكم من قدور الملح .. أنا كنت هناك ورأيتهم
في ضوء الشمس .. هياكل هؤلاء البوشمن .. عشرة هياكل
عظمية ملقاة جنباً إلى جنب حتى تجفها الشمس ...
تذكرت (سكوتى سميث) على الفور .. إنه مدفون هنا في
(أبنجتون) ... هل علمتم ذلك ؟ .. أنا ذهبت إلى هناك ..
هل تعرفون ما رأيته ؟ ... لقد نبش قبره !!! (سكوتى)
العجوز لم يعد نائما في قبره .. إنه هناك وسط (كالا هاري)
يصعد البوشمن ... أنا أعرف ذلك ... كل البوشمن
يعرفون ذلك ...

العدد القادم
NDE

المؤسسة

العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية

الشمس في مصر 300

وما يعادله باتدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

